لن ألبي نداءك

الله

بقلم

طارق يوسف

لن ألبى نداءك

بقلم

طارق يوسف

لن ألبى نداءك

الله

طارق يوسف

الإهداء

إلى كل المحبين على وجه الأرض أهدى قصتى .

طارق يوسف

تقديم

"إلى كل المحبين فى الأرض"يهدى الأديب المهندس طارق
يوسف،قصته الطويلة،التى طالما تشوف إلى خوض بحارها،وها
هو ذا يعود إلينا بعد رحلة الإبحار الممتعة فى فن الرواية،ليقدم
لنا عملا"فنيا"،يكتسب من ثقافته،وموهبته الكثير فى السّرد،
والبناء،واللغة وكأنه عقد"معاهدة حب" مع القارئ،أدت به إلى
إنجاز هذا العمل القصصى،الذى يستهل فصوله بفصل دالّ
يحمل عنوان التعاهد،ويشى بمضمون الرواية،وإتجاهها نحو
تصوير العواطف الإنسانية،تصويرا" أدبيا"، وفى فصول الرواية
الأخرى،من ميلاد قلب،على شفا الحب، أمنية تتحقق،حلم
عابر،شئُ من الواقع،رنين الهوى،غيم فى سماء الحب،الطريق إلى
الخلاص،بداية الإنحدار،ومالاتشتهى السفن وحتى الفصل
الأخير، يتقمص الراوى شخصية البحّار،فى رحلته بين الجزر
عبر اليمّ، وحتى الوصول إلى الشاطئ،مصورا" الأحداث،

والنماذج الإنسانية فى حال تفاعلها مع هذه الأحداث جزرًا ومدًّا.وحين فرغت من قراءة هذه القصة للأديب طارق يوسف تؤكد صدق ماذهبنا إليه من قبل،حيث يتضح هذا التجاوب بين الفن الروائى وجوهر الحياة الإنسانية،على النحو الذى يؤكد أن الكاتب الروائى ليس مجرد مرآة عاكسة للواقع،ولكنه يضفى عليه من المغزى مايجعل منه إبداعا" لهذا الواقع،حيث أن الإنسان يعيش فى عصر حافل بالتساؤلات،يطرحها صاحب هذا الكتاب فى تصوير فنى،وأسلوب جميل،يجعلنى أشارك القارئ الكريم فى قراءته،وقراءة أعمال الأديب المهندس طارق يوسف،متمنيا" له كل التوفيق.

الدكتور

عبد العزيز شرف

رئيس صفحة أهرام الأدب ورابطة الأدب الحديث

تعقيب على التقديم

لقد كتبت هذه الرواية منذ أكثر من عشرين عاما"و لم يشأ لى القدر أن تنشر حتى الآن،وبعد سنوات طويلة أيضا"وفى سنة ١٩٩٦م شاء لى القدر أن أتشرف بمقابلة الدكتور عبد العزيز شرف "رحمه الله" بعد تحديد موعد معه بالهاتف،ثم تمت المقابلة فى مكتبه بجريدة الأهرام ووجدته مرحبا"بالتعارف وإبداء إستعداده الراقى الجميل بقراءة روايتى تلك،وترحيبه بكتابة هذا التقديم السابق،ولاأستطيع أن أعبر عن مدى شكرى وإمتنانى وسعادتى أيضا"بكلماته الرائعة المشجعة التى عبر بها عن روايتى فى هذا التقديم،ثم أجزل فضله لى وجعلنى عضوا"بالرابطة التى يرأسها،ولكن لظروف الحياة الصعبة المختلفة لم يشأ لى القدر أن تنشر هذه الرواية،حتى علمت منذ ثلاثة أعوام عند قراءتى للجريدة أنه قد وافته المنية،وعرفانا"منى بهذا الجميل نحوه

وإعترافا"بأن مصر تزخر برجال قد حملوا على عواتقهم مشاعل التنوير لشبابها ولكثير غيرهم ممن يسيرون على نفس الدرب ولست أدرى هل يوافق على تقديم روايتى وإخراجها إلى النور فى هذه الصورة بعد منيته.

والله الموفق لنا جميعا"إلى مافيه خير أمتنا.

المؤلف

طارق يوسف

مقدمة

تمنيت كثيرا" أن أكتب قصة طويلة،وترددت كثيرا" قبل أن أبدأ في كتابة هذه القصة،فالكتابة بالنسبة إلىَّ شيءُ لايمكنني الإستغناء عنه أبدا"بل لاأستطيع أن أمتنع عنه أبدا"،ولست مبالغا" حين أقول أنني إستطعت أن أبدع في كتابتها بعض الشيء،ولاسيما إذا كانت فكرة كتابة هذه القصة ربما تكون حقيقية وربما نسجها الخيال فكانت على ما هي الآن،وقبل أي شئ فإنني كتبت هذه القصة أولا" لأنني أعجبت بفكرتها على الرغم من كثرة القصص والروايات العاطفية،التي لم تدع موضوعا" أو فكرة من أفكار الحب إلا وإخترقته وتناولته وبلورته،في شكل أو لون من الألوان المختلفة للحب،حتى أنه ربما أجد صعوبة في إقناع قراء هذه القصة بأنها لون فريد من ألوان الحب،كما

أعتقد أنها قصة ربما لايعتقد البعض أو لايخطر بباهم أنه يمكن أن يكون موجودا" من عاش هذه القصة وعايشها،وربما تندرج هذه القصة تحت لون القصص العاطفية والرومانسية التحليلية الإنسانية.

ولكن هل الحب موجود؟!برغم هذا الزمان الذى نحيا فيه الآن! وبرغم هذه الحضارات وهذا الرقى والتقدم الرهيب المذهل فى شتى المجالات،وبرغم كل الماديات وهذه الحياة المادية التى كادت أوربما أصبحت تطغى وتسيطر على كل شئ فى الحياة حتى الإنسان،وبرغم هذه الشرور وكل هذه الجرائم التى تملأ الدنيا،وبرغم هذا الحقد وذاك النفاق الذى أصبح يملأ قلوب الناس وإستشرى فى نفوسهم،وبرغم هذه الصراعات وهذه النزعات الإرهابية التى تملأ العالم،كأنما الإنسان مازال يحيا فى عصور تلك الغابات الأسطورية المتوحشة،وتلك الرغبات

الحيوانية الشرسة،وبرغم كل ذلك وبرغم كل شئ،فليس مما فيه أدنى شك أن الحب موجود وسيظل موجودا" طالما أن للإنسان وجود،أجل الحب موجود وإن إختلفت أشكاله وألوانه،وإن إختلفت درجاته وأحواله،وإن إختلفت أسبابه ومسبباته،هكذا شاءت إرادة العليم الخبير،وسيظل هكذا موجودا" حتى يرث الله الأرض ومن عليها.

فإقرؤا قصتي وإحكموا على صاحبها أوبطلها إذا صح القول،إقرؤا وحكموا عقولكم،وإحكموا بالعدل إذا شئتم وبالظلم إذا شئتم،إحكموا بالعدل إذا طاب لكم العدل، وإحكموا بالظلم إذا طاب لكم الظلم،أو إحكموا وكأنكم لم تحكموا فالحاكم الحق هو الله،والعادل الحق هو الله،إقرؤا قصة هذا البطل وإحكموا،هل كان عاقلا" أم مجنونا"؟هل كان صادقا" أم مخادعا"؟هل كان شجاعا"أم جبانا"؟وهل كان

رجلا" بمعنى الكلمة أم لم يكن كذلك؟!ولست أدرى هل ستحوز هذه القصة إعجابكم وتنال تقديركم لها أم لا؟ وإن كان إعجابي بها يسعدني بعض الشئ،ولاأدرى هل ستكتمل سعادتي بإعجابكم بها أيضا".

والآن أترككم للقراءة.

المؤلف

الفصل الأول

معاهدة حب

(١)

كان يوما"من أيام شهر يونيو فى صيف عام ألف وتسعمئة وأربع وثمانين ميلادية،فقد إنتهيت بالأمس فقط من إمتحانات السنة الثالثة بكلية الهندسة،وكانت الساعة تقترب من الخامسة والربع مساء"،فشرعت أسرع فى إرتداء ملابسى وخرجت أسابق الهواء،فى ذلك الطريق الممتد من أمام منزلنا الكائن بمدينة غرب القاهرة عبر مساحات شاسعة من الحقول الخضراء،وكان الهواء يحمل فى طياته نسيما"منتشيا"بأريج الزهور المنتشرة على حافتى الطريق،وظللت أسير حتى وصلت إلى ذلك المكان الذى إعتدت الجلوس فيه غرب المدينة،حيث السماء الصافية الجميلة المملوءة بقطع النور البيضاء،وبمجموعات كثيرة من العصافير والحمائم تطير فى أشكال هندسية منسقة،وحيث الأرض الممتلئة بالورود الجميلة الزاهية المختلفة الألوان،وبعض الأشجار المنتشرة هنا وهناك والتى تتدلى فروعها فى إنسيابية حانية،

وبينما أنا ناظر إلى السماء والأرض أتأمل فيهما حانت ساعة الغروب،فوقفت أنظر إلى الشمس عند رحيلها فى الأفق البعيد، حيث كانت تنساب منها خيوط ذهبية رقيقة التى بدأ صفاؤها يخفت ويظلم قليلاً" بإمتزاجها بخيوط السماء الليلية، ومن الناحية المقابلة يلوح لى قرص القمر الدائر من بعيد ينذر بقدوم ليل جديد،وبعد لحظات قليلة أفقت من تأملاتى، فوجدت أن الشفق قد إختفى بشمسى يوعدنى بشروق جديد ونهار جديد وبهجة جديدة وتأمل جديد،وهكذا أسدل الليل ستائره على سمائى،إلا من ضياء فضى هو نور القمر،فإستدرت وجلست حيث كنت أقف،ورفعت رأسى إلى السماء أتأمل القمر وهو يقترب رويداً" رويداً"حتى توسط فى سمائى،وفى تلك اللحظة أحسست أن به قوة وجاذبية وكأنهما تشدانى نحوه،كان مساء" ينهال ماأحلاه من مساء،وعبيرا"يتهادى ماأنسمه من عبير،

كانت ليلة لاأنساها رأيت فيها القمر بدرا" مكتملا"له بهاء" ماأعظمه من بهاء،كأنى لم أره من قبل، وكانت إشعاعاته تنساب فى شفافية ولمعان يالهما من شفافية ولمعان، وأنواره تتهدل فى روعة يالها من روعة،وبراعة يالها من براعة،ووداعة يالها من وداعة!أجل لقد ملأ القمر فراغا" هائلا"بالنسبة إلىّ، فقد أصبح لى أنيسا"فى وحدتى فألفته،ووجدت فيه سلوتى وملاذى،ثم أحسست وكأنى أريد أن أحدثه وأنه يمكنه أن يحدثنى ويجيب علىّ؟هذا الطائر الليلى المنير الذى طالما عشقته وآنست إليه، للدرجة أنى أحس وكأنه أصبح جزء من جسدى وروحى،هذا الطائر الذى يطير بلاجناحين ويحلق فى أعالى السماء،أجل إنه أصبح جزء من خسدى وروحى،فكم نظرت إليه؟وكم عشقته؟وكم أحسست أنه جزء من قدرى؟ لكأنه قلبى،أجل لكأن هذا الطائر الليلى المنير هو قلبى،فماذا أحدثه؟

وبماذا أسأله؟!.أجل أنت قلبى فإستيقظ أيها القلب الهادئ المثير،
إستيقظ من سباتك أيها العاشق شمسا"فأنا مثلك أعشق،إنهض
من نومك أيها الطيف المغرد فى صمت،فأنت لم تعد تملك
إلاحب التغريد،ولاسيما الصمت المضئ الحزين، إنهض وإنهل
من نهر الحياة.نهر الأمل.نهر الحب.نهر العطاء الإنسانى المتدفق،
وإجعل الحب لك نبراسا"وقبسا"تستنير به فى ظلمات دروب
الحياة،وإترك الأيام تفعل بك ماتشاء،إنهض عالمى عالم عشاق
الروح،عالم السلام والأمان،عالم الصفاء مع الأحباب،إنهض
عالمى وإستنشق من عبير الهواء الممتزج عشقا"،المملوء حبا"
يكفى لإسعاد الإنسانية كلها.

هاأنذا قد ناديت قلبى،فإستيقظ من غفوته فى كسل عنيد
وتثاؤب ممل،ثم جلس أمامى واضعا"ساقه اليمنى على يسراه،
وأشعل سيجارة،ثم بدأ ينفث دخانها فى وجهى بغيظ شديد،

ولمحت فى عينيه نظرات إشمئزاز ثم قال لى :

لماناديتنى؟ولماذا أيقظتنى؟وماذا تريد منى؟

فقلت : أنت قلبى فكيف لاأريدك؟

فقال : لاداعى لهذه الكلمات المعسولة.

ثم صمت برهة وقال لى : قل لى صراحة ماذا تريد؟!

فقلت : أريدك لى قلبا"منيرا".قلبا"عاشقا"محبا".فأنت قلبى.

أفلاتعرف الحب؟!

فقال : أنالست إلا مختصر الدم.ولافائدة ترجى منى سوى

الخفقان وحين ذلك يتوزع الدم على جميع أجزاء جسمك

وذلك لازم لحياتك.

فقلت : بل أنت مختصر الحب.مختصر الحياة.إنما الحب الحياة.

فقال : وماذا وراء هذه المناقشة وهذا الحديث؟

فقلت : أريدك أن تعرف الحب.

فقال : وماهو الحب؟وماهى فائدته؟

فقلت : إنه ذلك التخاطر والتوافق العجيب الذى يجمع بين قلبين وروحين.وإنه أطهر علاقة فى الوجود الإنسانى وتوافق إرادتين فى البحث عن الفضيلة.وهو أيضا"قبل أى شئ إرادة الله.

فقال فى سخرية : تقول أنه إرادة الله.فما فائدتى إذن؟ ومادخلى أنا فى إرادة الله؟

فقلت فى ثقة : أنت منبت الحب ومهده الدائم.ويمكنك أن تبحث معى عنه.فإفتح مصراعيك.وإجعل الأفئدة تهتدى إليك!

فقال : هل هذا هو كل ماتريده؟

فقلت : كلا ولنوقع معا"على هذه المعاهدة؟

فقال فى دهشة : أى معاهدة؟! فقلت : معاهدة الحب.

فقال : لقد غلبتنى وأعجبتنى .فلنتصافح!!!.

الفصل الثانى

ميلاد قلب

(٢)

بعد أن وقعت معاهدة الحب مع قلبى،عدت إلى بيتنا مسرعا" حتى أنسى ماجال بخاطرى،فأتناول العشاء مع أسرتى وبعدها نبدأ فى الإستعداد لمشاهدة التليفزيون فنستمع إلى الأخبار ونستمتع بماتجود به سهرته من برامج وفنون،وبعدها يذهب الجميع إلى النوم إلاأنا،فالسهرة دائما" لاتنتهى بى عند هذا الحد ،حيث أدخل إلى غرفة المكتب ويكون الوقت عندئذ فى منتصف الليل أوبعد ذلك الوقت بقليل،فأشرع فى فتح المكتبة وأقلب بين كتبها فأختار مايحلو لى أن أقرأ من كتب علمية أو أدبية أو فلسفية أو دينية،فأجد فى القراءة متعة وسلوى،وعندما أقرأ فصلا" أو أقطع شوطا" غير طويل فى قراءة كتابى،أتركه وأقوم لأعد فنجانا" من الشاى،وعندما أفرغ من إعداده أعود إلى غرفتى لأستمر فى قراءة مابدأته،وبين لحظة وأخرى أرشف رشفة من فنجان الشاى،وأنا على هذه الحال مستغرق فى

القراءة حتى يبدأ الملل يتسرب إلىّ أو أشعر برغبة فى النوم،فأثنى الصفحة التى إنتهيت إليها ثم أضع كتابى على المكتب وأغلق مفتاح الكهرباء وأذهب إلى باب المنزل لأتأكد من إغلاقه جيدا"،ثم أذهب إلى غرفة نومى فألقى بجسدى على فراشى وأنا بين تثاؤبات وآهات،فغالبا"مايكون الإرهاق قد تسرب إلى جسدى حيث تكون الساعة حينئذ فى حوالى الثالثة صباحا"، فأستلقى على جانبى الأيمن وأبدا فى قراءة الفاتحة وبعض الآيات القرآنية الصغيرة إستعدادا" للنوم.

وفى اليوم التالى بعد حضور والدى من العمل وتناول الغداء، ركبنا سيارتنا جميعا"أنا وأسرتى التى تتكون من والدى السيد أمين عبد الله وهو يعمل مديرا"للحسابات بإحدى الشركات، ووالدتى السيدة فاطمة وهى تعمل موظفة بهيئة التليفونات، وأخى وسام وهو طالب بالسنة الأولى بكلية الآداب،وأختى

مها وهى تلميذة بالسنة الثانية الإعدادية،فذهبنا لزيارة عمى، فقد كنا نتبادل الزيارات بين الحين والآخر،وعمى السيد جلال يكبر والدى بخمس سنوات وهو وكيل لوزارة الزراعة ويقيم فى مدينة الجيزة هو وأسرته،التى تتكون من زوجته السيدة زينب وهى تعمل موظفة بإحدى الشركات،وأبنائه الثلاثة وأكبرهم عاطف وهو طالب بالسنة الأولى بكلية الحقوق، وهدى التى إنتهت من إتمام الدراسة بالمرحلة الثانوية هذا العام، وعادل وهو تلميذ بالسنة الثانية بالمرحلة الثانوية،فجميعا"إذن قد إنتهينا من الإمتحانات وفى إنتظار النتائج عدا أختى مها وعادل إبن عمى،وبعد وصولنا مباشرة وتبادل السلامات والتحيات غالبا"مانترك آباءنا يتسامرون مع بعضهم،وننفرد وحدنا أنا وأخى وسام وأبناء عمى عاطف وعادل،فنذهب إلى حجرقم حيث نلعب الورق "الكوتشينة" أو النرد "الطاولة"

ولكن كان لعب الورق كان أحب إلينا جميعا"أماأختى مها

وهدى إبنة عمى فغالبا"ماتجلسان فى البلكون،أو تقدمان لنا

مانحتسيه حين يطلب منهما ذلك،وبعدما مللت اللعب تركتهم

ودلفت إلى البلكون فوجدت إبنة عمى وحدها.

فسألتها : ماذا فعلتِ فى الإمتحانات هذا العام؟وأى كلية

ترغبين فى الإلتحاق بها؟

فأجابت : يعنى إن شاء الله سأنجح والمجموع هو الذى سيحدد

الكلية التى يمكن ألتحق بها.

فقلت : إنه برغم ذلك ينبغى عليكِ أن تحددى هدفك.

فقالت : إننى لاأريد كلية محددة.فأى كلية يمكن أن أدرس بها.

فقلت : يبدو أنك مازلتِ صغيرة لدرجة أنكِ لاتستطيعين بل

لاتعرفين أى دراسة تستهويكِ وأى كلية تتمنين الإلتحاق بها.

فقالت بصوت عال:أنالست صغيرة ولايهمنى بأى كلية ألتحق.

فقلت : لايصح أن ترفعي صوتكِ أمام أخيك الكبير بهذه الطريقة وكذلك يجب عليك أن تناديى بأبيه أحمد.

فقالت فى غيظ : إنكَّ ساذج.

فقلت فى سخرية : بل صغيرة فعلا" ولهذا فلن أعاقبك أو أضربك وأعتقد أن هذا من حقى.

فقالت : لاتستطيع وليس هذا من حقك ـــ وماهذه إلامناقشة عادية.

فقلت : ولكنكَّ جعلتها معركة حامية بصوتكَ المرتفع ومع ذلك فقد إنتهت المناقشة.

فقالت فى هدوء : إنى آسفة.

فقلت فى سماحة : الله يسامحك.

وإنتهى كلامنا إلى هذا الحد وكلا" منا يجول بناظره فى الشارع الممتد أمامنا،وفى هذه الأثناء دخل جميع الأخوة عندما فرغوا

من اللعب،وبدأنا نتبادل الحديث والضحك بيننا وبعد قليل
خرجنا لنعود إلى منزلنا،وبعد حوالى ما يقرب من شهرين
حضر إلينا عمى وأسرته لزيارتنا،وفى هذه الزيارة أخبر عمى
والدى أهم سيذهبون إلى الإسكندرية لقضاء أسبوع بالمصيف
هناك،وطلب منه أن يذهب لمدرسة هدى لمعرفة درجاها فور
إعلان نتيجة الشهادة الثانوية العامة،وإبلاغهم بها بإرسال
تلغراف إليهم فمن المتوقع إعلان النتيجة خلال هذه الفترة،وفى
صباح يوم إعلان النتيجة ذهب والدى لمعرفتها،لقد كان يوما"
لاينسى فجلست أنتظر أوبة أبى وأقرأ الصحف،وبعد الإنتهاء
من قراءها وفجأة تراءت لى صورة هدى إبنة عمى أمامى،
فوجدتنى أخوض فى حديث مع نفسى، تُرى علي كم تحصل
من الدرجات؟ليتها تحصل على درجات تؤهلها للإلتحاق
بكلية الهندسة مثلى حتى نكون سويا"دائما"وحتى إذا حدث

هذا فربما لاتختار هذه الكلية،وماذا يضيرنى ألانكون معا"؟ولما
نكون سويا"دائما"؟اوفى تلك اللحظة أحسست أن قلبى ينبض
فى حيوية وقوة لم أعهدهما ولاأدرى لماذا؟وأخذت أسائل
نفسى : لما نكون معا"دائما"؟اومالسبب فى ذلك؟أجل إن
الإحساس بالرغبة فى الحب يجعل الإنسان تواقا"إلى الحياة،
ويجعل قلبه ينبض فى قوة وحيوية،أجل إننى أحب هدى بل
وأحبها من زمن طويل.ولمالاأحبها؟ولمالاأختارها لنفسى؟فلتكن
لى فهى جميلة ورشيقة ومؤدبة،بل وأعتقد أن أى شاب يتمنى
أن تكون له،لالا.لاداعى أن أقحم نفسى فى هذه الأفكار
ويجب أن أنتزعها من عقلى ولابد ألافكر فيها نهائيا"،فقد
أكون أنا من تحلم هى به،وربما تحصل هى على درجات مرتفعة
فتلتحق بكلية الطب مثلا"ولمالا؟فهى ذكية وحين يحدث ذلك
فأعتقد أنها لايمكن أن تفكر فى مثلى،أجل لابد ألاأفكر فيها

مرة ثانية ولأفكر فى إحدى زميلاتى ولمالا؟!فقد عرفت منهن الكثيرات،حقيقة لم يكن يخرج حديثنا دائما" عن موضوعات الدراسة العادية،بالرغم من أنه كانت هناك فرص كثيرة للخوض فى أحاديث الحب والزواج،ولكنى من ناحيتى لم أحاول أن أرغم نفسى على الإحساس بالحب نحو إحداهن، بالرغم من أننى كنت أعرف منهن جميلات كثيرات بل ومظهرهن شيك جدا" يدل على أنهن من طبقة الأغنياء،وإن كانت بعض الفتيات كن يحاولن جذب إنتباهى إليهن،ولكن لم تكن منهن من يمكن أن أحلم بها كزوجة أو أرغب فيها،فهناك صورة مرسومة فى مخيلتى وعقلى للفتاة التى يمكن أن أحبها وأتزوجها،إنها صورة نادرة ليس للوسامة ولاللرقة فيها حدود، ولكن منْ هى؟لاأعرف!.

إن صورة هدى أقرب إليها،أجل إنها أقرب إليها بل هى فعلا"،

وفى هذه اللحظة أحسست بنداء قلبى لها.إذن فلابد أن أعترف لها بذلك.لابد أن أقول لها.وأصرح لها بذلك.لالا.لايصح أن أفعل ذلك،فأنا مازلت طالبا"إذن ليكون ذلك بعد أن أنتهى من الحصول على البكالوريوس،وبعد ذلك يمكننى أن أصرح لها فما يزال يتبقى سنتان على الإنتهاء من الدراسة،وفى خلال هاتين السنتين يمكننى أن أعرف طريقة تفكيرها وأختبر مشاعرها وإحساساتها نحوى،ولو بطريقة غير مباشرة وبينما أنا أستغرق فى أفكارى وخواطرى هذه،حضر والدى فأسرعت أسأله وأعرف منه على كم حصلت هدى من الدرجات؟لقدحصلت على درجات متوسطة بنسبة خمسة وستين فى المائة ولذلك فإنها لايمكن أن تكون معى أبدا".يالها من خسارة.ولكن يكفى أن أراها كلما إلتقينا حين تزاورنا،وكذلك يمكننى أن أذهب إلى بيت عمى كلما تحين مناسبة أو تسنح فرصة أو أجد حجة لزيارتهم والذهاب إليهم.

الفصل الثالث

على شفا الحب

(٣)

عاد عمى وأسرته من الإسكندرية وبعد حوالى شهر تقريبا"،
سافر هو وزوجته لآداء فريضة الحج فذهبنا لزيارة أبناء عمى
وكذلك للإطمئنان عليهم،ودعوهم للإقامة معنا حتى يعود
عمى وزوجته،ووجدنا هناك صديقا"لإبن عمى عاطف يُدَّعى
حسام،وبعد قليل إنصرف والدى ووالدتى ومعهما أختى مها
وأبناء عمى هدى وعادل،على أن نعود وحدنا أنا وأخى وسام
وإبن عمى عاطف بعد أن ينصرف صديقه،وفى هذه الأثناء
آخذنا جميعا" نلعب الورق،وبعد آن إنتهنا من اللعب إنصرف
حسام صديق عاطف،ثم تهيأنا أنا ووسام وعاطف للعودة إلى
منزلنا،فركبنا سيارة تاكسى وعدنا إلى بيتنا،وبعد أن دققنا
جرس الباب فتحت لنا إبنة عمى هدى وكانت هى أول من
إستقبلنا،ودون أن أدرى أو دون قصد منى وجدتنى أقول لها
أنت "أمورة"أى جميلة جدا"فعلاً وجهها حمرة الخجل فإنعقد

لسانى عن الكلام،ثم إبتعدت عنها خشية إفتضاح أمرى أمامها، ثم رحت أعنف نفسى بينى وبينها وعزمت على أن أنتبه لكل كلمة أقولها أمامها بعد الآن،وفى خلال هذه الفترة التى قضوها معنا كنت أحاول أن أبتعد عنهم،وأختلق حجة للجلوس وحدى فى غرفة المكتب وغالبا"ماأقلب فى صفحات كتبى وأوراقى،وخاصة فى الوقت الذى يكون فيه والدى ووالدتى فى العمل،ولكننى لاحظت أن هدى بدأت تسترق النظر إلىّ كثيرا"،أجل لقد كانت كل لحظةٍ من عينيها ورجفة من جفنيها تقول أحبك،ولكنى قلت لنفسى ربما أكون واهما" وماكان علىَّ إلا أن أتجاهل نظراتها وكأن شيئا" لم يكن.

أصبحنا على مشارف بداية العام الدراسى الجديد،وكانت هدى قد إلتحقت بكلية التربية،وكان حبى لها قد ملأ شغاف قلبى وسيطر على وجودى وكيانى،وكنت دائما" أحاول أن

أخفى إحساسى بكل ماأوتيت من قوة تجعلنى لاأسمح أن
يتسرب الضعف إلى نفسى فى وجودها،وأحاذر ألايصدر منى
أى تصرف أو أى سلوك نحوها قد تلحظه فيوحى إليها أو إلى
أى شخص آخر،أننى أكنُّ لها حبا" بين جوانحى أو أشعر بأية
عاطفة تجاهها،وكنت أستمد تلك القوة من صورها التى كانت
معى،بعدما أخذتها من دولاب والدتى وإحتفظت بها دون أن
تعلم هى بذلك،وبعد ذلك علمت من والدتى أن هدى هى
التى أعطت لها صورتها حينما طلبت منها أن تعطيها إحدى
صورها،وقد نسيت تماما" أن مثل هذه الصورة موجودة لديها،
وبعد أن إحتفظت بهذه الصورة لفترة طويلة،ومن يومها وأنا
أحملها معى دائما" وكلما إستبد بعقلى الشوق أو إستمالت
قلبى العاطفة فإننى أنظر إلى صورتها وأروى العاطفة الظامئة
لرؤية وجهها الذى يفيض بشرا"وبراءة،ولكن أنّى للأشواق أن

تهدأ وأنّى للعاطفة أن تطفأ وأنّى للحب أن يضعف أو يلين؟
وماذا عساى أن أفعل؟ وكيف يمكننى أن أصرح أو أقول؟
وكيف أصبر؟والصبر لايصبر حتى على صبرى،ولكن ليس لها
فقط ولكن للدنيا بأكملها،وليكن هذا الأمل أو هذا الحب
حافزا" لى على أن أذاكر جيدا"حتى أنجح وأنتهى من دراستى
فى الموعد المحدد لذلك بمشيئة الله تعالى،ولكننى مازلت أتذكر
حديثا"لى مع عمى حين حضر لزيارتنا وحده فى بداية هذا
العام،وفى يوم من الأيام وكان والدى غير موجود بالمنزل،
وسألنى ماذا أنوى أن أفعل بعد التخرج؟فأجبت أننى لم أفكر فى
هذا الأمر حتى الآن،فمازال يتبقى عام واحد وإلى أن ينتهى
هذا العام يمكننى أن أفكر فيما يمكن أن أفعله،ولكننى قلت له
يومها أننى أتمنى أن أكمل دراستى بعد الحصول على
البكالوريوس،ولكن ذلك لايغنِ عن العمل،فقال أنه كان

يتمنى أن تلتحق هدى بكلية الطب،ولكن يمكنها أن تتفوق
وتكمل دراستها أيضا"فالفتاة حين تكون متعلمة ومثقفة
ومتفوقة تكون محترمة بل ويحترمها زوجها،ولكن ألايحترم
الزوج زوجته أولايحترم الرجل المرأة إذا كانت غير متعلمة أو
غير مثقفة؟!وبعدما خرج عمى جلست وحدى وأحسست
بثورة عارمة فى داخلى،وأعتقد بل ومن المؤكد أن عمى يحلم
بمستوى معين لإبنته وأيضا"من يتزوجها لابد أن يكون على
نفس هذا القدر أو منه،ولكن له الحق آن يحلم بمايريد لإبنته،
ولهذا كان يجب أن أضع حدا"لهذا الحب وأن أمنع نفسى من
الإغراق فيه وأن أحد من أشواقى المتدفقة وعواطفى الظامئة
المتجددة إليها الحانية عليها دائما"،لولا أننى بدأت أشعر بتغيرها
نحوى،وأسأل نفسى ماسر هذا التغير؟وماسر رقتها الطاغية فى
تصرفاتها وسلوكياتها معى؟وكذلك ماسر دعاباتها الحنون

وإبتساماتها الوردية إلىّ؟!أجل لقد كان يجب أن أضع حدا" لهذا
الحب بل كان يجب أن أمتنع عنه مطلقا"،لولا وسامتها النادرة
ونظراتها الحالمة إلىّ التى كانت تودعنى بها فى نهاية لقائنا،كلما
منت الأقدار بلقاء،وكانت هدى تحاول دائما"أن تعرف بطريقة
غير مباشرة إحساسى نحوها،ففى مرة من المرات قالت لى أنها
رأتنى فى أحد الشوارع بالقاهرة أسير وبجانبى فتاة،فأستنكر
ماتقول ثم نستغرق فى الضحك،وفى هذه الزيارة لنا إليهم
حاولت أن تستفزنى لتلفت نظرى إليها،فقالت إن حسام
صديق عاطف ظريف ولطيف جدا"،فقد كان موجودا"عندهم
فى هذه المرة هو وأخته لأن أسرته صديقة لأسرة عمى،
فتجاهلت ماقالت كما أننى كنت دائما"أستفزها وأقول لها
إنك مازلت صغيرة،حتى أحسست فى هذا اللقاء أنها تضغط
على يدى ضغطا"خفيفا"حانيا"حينما مددت يدى لمصافحتها

والسلام عليها،بعد أن هممنا للإنصراف والعودة إلى منزلنا ومن
يومها أدركت أنها تحبنى كما أحبها،ولكن هل أجاريها؟
وأتجاوب معها وأستجيب لندائها أم أمسك بزمام أمرى
وأكبت جماح مشاعرى وأتركها حتى أنتهى من دراستى،
فيكفى مانحن فيه ولكننى أخاف أنها ربما تعتقد أنى لاأحبها...

الفصل الرابع

أمنية تتحقق

(٤)

مضى شهران منذ بدء العام الدراسى الجديد وكنت فى هذا العام فى السنة النهائية،ولم يعد يتبقى سوى عدة أشهر وتنتهى دراستى،فتراءت لى فكرة أن أذهب لزيارة عمى وأسرته، أو لكى أكون صادقا" مع نفسى،هو أن أذهب لرؤية هدى كى أستمد من رؤيتها زادا" تهدئ من لهفة نفسى ولتعيننى على شوق فؤادى إليها،وحتى أنتهى من إمتحاناتى العملية للفصل الدراسى الأول،فلم يعد يتبقى سوى شهر واحد على البدء فيها وبعدها يحل موعد إجازة نصف العام فأذهب مرة ثانية، ولقد إنتابتنى هذه الفكرة وتجسد هذا الإحساس فى عقلى بعدما إنتهيت من دراستى فى هذا اليوم،فتوجهت للذهاب إلى المنزل حيث كانت الكلية بالجيزة ومدينتنا الصغيرة التى يوجد بها بيتنا تبعد بحوالى خمسة وعشرين كيلومترا"،وبينما أنا واقفا" على المحطة نشأت هذه الفكرة فى عقلي،وكانت الساعة تقترب من

الثانية عشرة ظهرا" فلم يكن لدينا درس عملى واحد،ولكنى
قلت لنفسى لاليس اليوم،ثم تراجعت وقلت لما لايكون اليوم؟
فقد لاتتأتى لى فرصة أخرى،وأذكر أنه كان يوم أحد من أيام
شهر ديسمبر سنة ألف وتسعمئة وأربع وثمانين،وكان بيت
عمى يبعد عن الكلية بمسافة حوالى كيلو متر أو أكثر قليلا"،
حيث يسكن هو وأسرته فى شقة بإحدى العمارات المتراصة
على الطريق بإمتداد شارع الجامعة،وبينما كنت سائرا"متوجها"
إليهم مر بخاطرى فكرة جنونية ماكنت أتصور أنها يمكن أن
تجول بخلدى!!!أتعلمون ماهى؟فجأة وجدت نفسى أتوجه إلى
السماء وأدعو الأقدار أن أجدها وحدها بالبيت،وأن تكون
محبة لى كما أحبها،تخيلوا–أنا يمكن أن يخطر بعقلى فكرة
كهذى–وماذا ترونى أفعل؟لوكانت وحدها حقا"الالا.لايمكن
أن أفعل شيئا" إن ماأقوله هراء،بل لابد إذا وجدتها بمفردها أن

أذهب ثانية،إن هذا ليس بالشئ المنطقى أو المعقول بل إنى لن
أجد أحدا" على الإطلاق،فمما لاشك فيه أن أباها وأمها لابد
ومايزالا بالعمل وهى وإخوهّا كل منهم فى كليته،أوَّ يمكن أن
يحدث هذا؟ولمالا فربما يكون!وعلى أية حال إذا تحقق هذا
فعلا"ووجدهّا وحدها،فلابد أنى ذاهب ثانية فلايصح قطعا" أن
نكون وحدنا بالبيت وليس معنا أحد،بل قد يكون هذا مدعاة
لأن يفكر أحد منهم أن هناك شيئا" بيننا،وأنا لاأود أن يعلم
أحد شيئا"،أجل...أجل لابد أنى ذاهب ثانية إذا حدث
ووجدهّا وحدها،وماكدت أصل إلى الباب وأدق الجرس حتى
فتحت لى هدى كأنها كانت تنتظرنى أوكأنها كانت معى على
ميعاد،فسلمت عليها وأحسست بتلك الكهرباء اللذيذة وذلك
التيار الخفى الرائع الذى أحس به دائما" عند مصافحتها،ولقد
إستقبلتنى أفضل إستقبال ورحبت بى خير ترحاب،وما أن

دلفت من الباب وأغلقته ورائى حتى جلست على أحد مقاعد الأنتريه فى غرفة المعيشة المواجهة لباب الشقة،ووجهت لها الحديث وأنا قابع مكانى فقد كانت مشغولة فى بعض أعمال البيت،كما سمعت صوت موتور الغسالة الكهربائية وهو يعمل فقلت لها :

كيف حالكم جميعا"؟.

الحمد لله.نحن جميعا" بخير.

ألايوجد أحد هنا؟

لا لم يحضروا بعدْ.

كيف حالك؟وماذا فعلت بالكلية حتى الآن؟

الحمد لله.ولكن مازلنا لم نتسلم المذكرات إلى الآن.

وَلِما لم تذهبى إلى الكلية اليوم؟

إن اليوم إجازة أسبوعية.

ربنا يوفقك.وأرجو تبليغ سلامى إلى عمى وتنت وعاطف وعادل ويجب أن أستئذن الآن.

ثم توجهت إلى الباب فأتت مسرعة وقالت :

لالا.لاتخرج إنتظر حتى أعد لك فنجانا" من الشاى.

لاداعى.فأنت مشغولة ولايوجد من أحدثه.إجلس وبعد قليل سيحضر عادل من المدرسة.وسأعد لك فنجانا" من الشاى.

فرضخت لرغبتها وعدت إلى مكانى وإن كنت أحس شيئا" من الحرج،ولكن لما الحرج؟أليست هى إبنة عمى كأختى وألست أنا إبن عمها كأخيها؟!ثم ساد صمت بيننا وبينما أنا جالس فكرت فيما حدث،لقد تحققت أمنيتى ووجدتها وحدها كما كنت أريد،وتمسكت هى بوجودى،فربما كانت ترغب فى ذلك وتريد أن تستبقينى وربمالا،إنها لم تفعل ذلك إلا من منطلق المجاملة ومايمليه عليها الواجب.

أجل لقد تحققت أمنيتى بل وأكثر مما كنت أتمنى،لقد كان القدر
كريما" معى إلى أبعد حدود الكرم،كأننى كنت فى حلم بديع
لاأريد أن أصحو منه أبدا"،بل والأغرب من ذلك أنها تريد أن
أبقى معها وحدنا دون أن يبقى معنا أحد!أحقا" تبادلنى
إحساسى وشعورى أم أنا واهم مغرور؟وبعد قليل حضرت
تحمل فى يديها صينية فضية عليها فناجين من الشاى،فوضعتها
فوق المنضدة وجلست على الأريكة الموجودة بجوار مقعدى،
ولكنها لم توجه لى حديثا" و لم أجد أنا ما أقوله كى أخرج من
حيرتى وأقطع رهبة الموقف،قد لاتصدقوننى فيما أقول ولكن
هذه هى الحقيقة فقد كنت أشعر أننى فى موقف يستحق الرهبة
كهذى،ناهيكم عما يحدث فى الكلية من إختلاط بين الطلبة
والطالبات فغالبا" مايكون ذلك فى جمع كبير،ونادرا" ماكنا
نجلس وحدنا آنا وإحدى الزميلات ولكننا كنا نجد مانقوله

ومايستغرق تفكيرنا،أما ماكنت فيه فى هذه اللحظة فما كان
يخطر ببالى أنه يمكن أن يحدث؟أتعلمون ماذا حدث؟!دون أن
أدرى وجدت يدى تعبث فى شعرها،وماشعرت إلا بكفى
توضع فى حنو فوق كفها،ولكنها لم تحرك ساكنا" ولم تنبس
بكلمة،وصرت أتلمس ظاهر يدها بباطن يدى،كما يتلمس
الصائغ أغلى مايملك أو كما يتلمس الكفيف وجه من يعشق،
ثم بدأ الحديث بيننا ليس بالأفواه ولكن بالأعين والأيدى،كان
حديثا" ماأروعه من حديث وتناجيا" ماأمتعه من تناجى،ثم
أخذت أتلمس أناملها واحدا" واحدا" بمنتهى الوداعة والحنو
لفرط رقتها ونعومتها كأنها أنامل مايسترو،أو أنامل عازفة على
أوتار القلوب،وبعد ذلك التلمس الجم فى العذوبة والتحنان،
إحتويت كفها فى يدى وضغطت عليها ضغطا" رقيقا" حانيا"
مثلما تفعل معى،كأننى أصيح هاتفا" من مغارات فؤادى أنى

أحبها" ثم تخللت أناملها فتعانقت أيدينا،وكانت هذه أول مرة أعرف فيها كيف تتناجى أكف العشاق وكيف تتهامس أعينهم؟!وأقسم لكم أننى ماأحسست طيلة عمرى ألذ من تناجى أيدينا وأرق من هامس أعيننا،وبعد ذلك وجدتنى أقوم وأجلس إلى جانبها على الأريكة التى تجلس هى عليها،يدى اليسرى متشابكة مع يدها اليمنى،ويدها اليمنى تعبث بشعرها المنساب المتهدل على كتفيها كأنه سلاسل من حرير،وتتخلله كما يتخلل ماء النهر القنوات والجداول.

لم أقل لها "إنى أحبك" ولم تجسر هى أن تقول لى ذلك،ولكن كانت عيوننا وشفاهنا وأيدينا وخواطرنا وجوارح كل منا همس هاتفة أوهتف هامسة "إنى أحبك" فما كان كلاً" منا بحاجة أن يقول له الأخر هذه الكلمة،فكلمة "أحبك" تحس قبل أن تسمع فهى كالشعاع المنير والسهم المخترق تمضى من قلب

إلى قلب،فهى إذن ليست بحاجة إلى قول يظهرها ويخرجها من
دائرة الإحساس إلى دائرة الإستماع،وإلافقدت رونقها وعبقها
وبريقها كالزهرة الجميلة النضرة التى إذا رحل عنها الربيع وحل
الخريف ذبلت وجفت،وماكان أحوجنا إلى هذا القول وقد
كان قولنا لها بهذه الطريقة وهذا الفعل كأروع مايكون القول
وأبدع مايكون التناجى،ثم إنحنيت برأسي وأنا ناظر إليها نظرة
هادئة حانية متلهفة كما ينظر الفقير إلى قطعة من الحلوى، أو
كما يفحص الجواهرجى أنفس ماعنده،وماأشعر إلا وحرارة
أنفاسى تلهب وجهها،وشفتاى تقتربان من شفتيها وتلثمها
لثما"خفيفا" وأظن أن فعلتى هذه قد لاقت فى نفسها قبولا" فلم
تفتر ولم تنفر ولم تنطق ببنت شفة،وماندرى إلا وأجفاننا تتثاقل
كأننا ثملين مخمورين،أو كأننا فى شبه غيبوبة،مانشعر سوى
بشفاهنا ملتهبة فوق بعضها،وأنفاسنا متلاحقة ممتزجة،وبلا أى

شعور أو إرادة وجدت ذراعىَّ تحتويها فى حنو وتضمانها فى
قوة رقيقة ورقة قوية، كأنهما تخافان أن تهربا أو تفلتا من بينهما،
كما يحتضن الطير صغاره ويحيط بهم خوفا" عليهم، ثم نغفو
سكارى فى نشوة لذيذة كأننا فى نوم بديع، ثم تباعدت شفاهنا
حينا" حتى نستعيد أنفاسنا، ومانلبث ومانأبى إلا أن تعود فى لقاء
ألهب وأعنف، وأخذت أتلمس محياها فى رقة بالغة ورفق عنيد،
فأسندت رأسها على صدرى وبين حين وآخر تتقابل شفاهنا
كأننا صيادان ماهرين شرهين لانقنع كلما ألقينا شباكنا
وعادت مليئة بالخير الوفير.

ثم قطعت صمتنا فقلت لها :

أعتقد أنك الآن تفهمين مابداخلى ولست بحاجة أن أقول أو
أصرح عما بصدرى.

فوضعت أناملها على شفتى وقالت :

لاتقل شيئا" ودعنا نهنأ بأرغد لحظاتنا وأوقاتنا سعادة فقلما
يجود القدر بمثل هذه اللحظات والأوقات وألااختار أو نطلب
منه شيئا" حتى يجود هو بالأمانى ويكفينا ما نحن فيه.
ولكنى أريد أن أعرفك حقيقة مابداخلى فقد كنت أعتقد أنى
واهما"،ولهذا ماتسرعت وماجسرت أن أفهمك مكانتك فى قلبى
خوفا" ألا تكونى مبادلة لى فى إحساسى وشعورى،دعينى . . .
دعينى أقول أنى مارأيت فى حياتى عيونا" أصدق وأجمل من
عينيك ففيهما ألوانا" وبريقا" يعجز كل أطباء العيون أن يجدوا
سببا" له،وبشفتيك رقة وحنانا" لايستطيع كل علماء اللغات أو
كل مؤلفى الموسيقى أن يعرفوا وصفا" له،دعينى أقول أنى ما
رأيت فى حياتى وجها" أبهر من وجهك هذا الملائكى النورانى
سبحان من أبدعه وأفتنه،دعينى أقول أنى ماتمنيت فى حياتى
أملا" ملء عينى وملء جوارحى وملء فؤادى أروع وأغلى

وأرق وأحن منك.

أحقا" ماأسمع لقد أثملتني وأنشيتني كأني بك تصف ماينتاب جوارحي تجاهك ومايمتلك إحساساتي نحوك،إن لكلماتك عذوبة وطلاوة،وإن لحديثك حلاوة ونجاوة،وأشكر القدر أنه منَّ عليَّ بمثلك فأنت كل آمالي وأمير أشواقي وفتى أحلامي، وأحمد الله أنه جاد عليَّ بك وألانكون لسوانا فعهدي بك أن أهواك وعهدك بي أن تهواني.

ماكنت أعلم أنك بارعة الحديث إلى هذا الحد وإلى هذه الدرجة كأني بك أدخل في زمرة الشعراء وأقف في مصاف عظماء الأدب،وسأعمل جاهدا" بكل ماملكت قواي على إسعادك ولأحقق أمانيك كي أكون جديرا" بك فأنت صِنْو روحي وأمل نفسي الباقي الأزلي وأغنية فؤادي في كل ربوة وكل حقبة.

أنت جديرا" بى وحدك وبذاتك فقط كما أنت دون أية إضافات أوزيادات بل أنا التى أتمنى أن أكون جديرة بك ويكفى ماأخذنا على أنفسنا من عهود ومواثيق.

أواثقة أنت بى؟!.

تمام الثقة على ألايعلم هذا أحد.

وهيا بنا نحتسى الشاى فما أظنه إلا قد برد ويحتاج إلى تسخين.

ثم همت واقفة فأمسكت بيدها وقلت لها :

إجلسى ولاداعى لأن تعيدى تسخينه فيكفى أنه من إعدادك ولهذا سيكون ألذ شاى أحتسيه فى حياتى لأنه من صنع يديك. وماكدت أنتهى من كلماتى تلك ودق جرس الباب فقامت تفتحه،وجلست أنا على مقعدى وأخذت أشرب فنجانى على عجل عَلّىِ أدارى به ماإجتاح مشاعرى من سعادة وماهز فؤادى من هناءة،وماكدت أضع الفنجان على الصينية حتى

دخل عادل فقمت لتحيته.

وبعد أن تصافحنا قال لى : كيف حالك الآن؟

لم يعد يتبقى لك سوى هذا العام وتنتهى دراستك بخير.

وكيف حالك أنت؟إنه يجب عليك أن تستجمع هممك ولتذاكر جيدا" وأن تجد وتجتهد لتنجح بتفوق فتحصل على مجموع كبير يؤهلك لأن تلتحق بما تريد،فأنت هذا العام فى الشهادة الثانوية وتمنياتى لك بالتوفيق وأن تحقق كل أمانيك.

ولما لاتأتى كثيرا" إلينا فالكلية قريبة من هنا؟

غالبا" لاأجد الوقت،ولكن اليوم.ألغيت إحدى المحاضرات و لم يكن عندنا سوى درس عملى واحد وإنتهينا منه مبكرا"؟ ثم صمت برهة وقلت فى خبث :

ولهذا جئت منذ قليل لرؤية عمى،ولكنى لم أجده و لم أجد أحدا" منكم،وفى بادئ الأمر فكرت ألاأحضر إذربما لاأجد

أحدا" على الإطلاق،ثم تراجعت وقلت لنفسى ربما يكون عمى قد عاد من العمل مبكرا"،وحينما جئت لم أجد سوى هدى.

ألها هذا الشاى؟

فأجابت هدى من الداخل وقالت :

هو لى ولكنى لم أجد وقتا" لإحتسائه والجلوس مع أحمد فأعمال البيت كثيرة اليوم وأظننى قد نسيته حتى برد.

لقد أحسنت الإجابة وأنقذت الموقف فقد كان سؤالا" محرجا" وربما أدركت هى أنى قد لاأجد ماأقوله،ولكنها لم تجرؤ أن تدخل لتجلس معنا" وتشاركنا الحديث،وبعد قليل هممت بالإنصراف فوقفت مصافحا" عادل فقال لى :

إلى أين ياأحمد؟ألاتبقى معنا لتناول الغداء؟

فأجبته : فى المرة القادمة إن شاء الله،لأنى أريد أن أعود إلى البيت مبكرا" اليوم فعندى بعض المحاضرات يجب مذاكرتها،

وأرجو تبليغ سلامى إلى عمى وتنت وعاطف ودعونا نراكم إن شاء الله.مع السلامة.

خرجت من بيت عمى ثملا" نشوانا" مذهولا" كأننى فى غيبوبة مماحدث،تمر أمامى صور الناس والسيارات والمبانى وتتراءى لى كأننى فى حلم جميل وصرت أسائل نفسى : أترى ما فعلته كان جرما" عظيما"؟أكان يجب علّى ألاأجاريها وأن أكبح جماح مشاعرى؟أترى أننى إنحدرت إلى درك أسفل من الإنحطاط والحيوانية؟أوليس هذا حبا"؟أيكون ذلك إسفافا" ومهانة حتى ولوكانت نهايته الطبيعية هى الزواج؟أوَّلوكان حبى لها حقا"!مافعلت ذلك؟ولوكان حبها لى حقا"!مااستجابت لرغبتى،إن هذا ليس حبا" لأنه أقرب من الشهوة.والشهوة من صفات الحيوان،فالحب الحقيقى أجمل شئ فى الوجود والإحساس به أطهر من أن يلوث بالأحضان والقبل.

أيمكن أن يكون قد حدث ما حدث؟يالسخرية القدر!أهذه هى الحقيقة أم أنا سكير مخمور؟يالسخرية القدر وإستهزائه بى!إنه يحقق لى ماكنت أتمنى!!!

ترى أيحقق لى ماكنت أريد وأكثر مماأريد لمجرد أنى أريد،أم يسخر منى؟ويريدنى أن أقطع بشئ وهو ألاأختار لنفسى شيئا"، أو أمنيها بالحصول على شئ بذاته على الإطلاق ماباله كريما" معى إلى هذا الحد؟!أم تراه يستخف ويستهين بى ليعطى نفسه الحق فى أن يبخل علّىَ بكل شئ بعد ذلك؟!إنى . . . إنى أوقن أن له الحق فى أن يعطى ويمنح أو يضن ويمنع.

الفصل الخامس

حلم عابر

(٥)

ظللت على هذه الحال من التساؤل والحيرة فيما حدث حتى
وجدتنى جالس إلى المنضدة أتناول الغداء مع أبى وأمى،متى
خرجت من بيت عمى ؟وكم مر من الوقت وأنا واقفا" فى
المحطة؟وكم إستغرقت الحافلة فى رحلتها حتى وصلت إلى
مدينتنا،ومتى وصلت؟وكيف وصلت؟وكيف قابلت والدىَّ
وإستبدلت ملابسى وجلست أتناول الغداء؟كيف حدث كل
هذا دون أدرى؟وكيف لم أعِ ماتحدثوا فيه؟ولم أفق من غفوتى
تلك إلاعلى صوت والدى وهو يقول لوالدتى إن هدى
ستكون مناسبة لوسام فهما متقاربين فى السن.
ياللهول أحقيقة ماأسمع؟أم ماهى إلا تهاويم وهراءات كثيرا"
ماتحدث حينما يجمع الحب بين قلبين وروحين؟ألعنة الله على
الحب والمحبين،لقد كان لهذا القول أثرا"قويا"ووقعا"غريبا"على
نفسى ردنى إلى كامل وعىٍ وتمام إتزانى،أحقا"مايقولون؟أيمكن

أن يكون ماقالوه حقيقة يمكن أن تتحقق فى يوم من الأيام؟ولما لاوهل تعجز الأقدار أن تحقق ذلك إن أرادت؟!سواء رضيت أم أبيت؟وسواء كان هذا بإرادتى أوبدونها؟ولكن كيف ترضى هدى ذلك وقد تعاهدت معى أن تكون لى؟!وهل يمكن أن تتبدل ويتحول الحب فى قلبها إلى أخى وسام ولمالا؟!

ظللت أتردى بين هذه الأفكار والوساوس،وأنا قابع فى غرفتى وحدى بين كتبى وأوراقى وأقلامى،فلم يهدأ عقلى عن التفكير لحظة،ولم تأب خواطرى أن تنزع هذه الأفكار حتى ساعة متأخرة من الليل،فأويت إلى فراشى وأنابين رجاء وشقاء،رجاء ألايتحقق هذا،وشقاء من عاقبة حدوثه وتحقيقه كأنه قد حدث بالفعل،أوَّ لم تجد هذه الأحداث يوما" أفضل من هذا اليوم حتى تحدث فيه؟هذا اليوم الذى شهد على ميلاد حبنا وتعاهدنا فيه على أن نكون لسوانا،مابال هذا الحب تعسا"يجد الهناءة بالشقاء؟

وماكادت عيني تغفل،وماكاد عقلي يهدأ،وماكادت نفسي تركن إلى خمولها فتخمد وتتثاقل حتى وجدتني فى بيت عمى مع أبي وأمي وإخوتي وسام ومها وكذلك حسام صديق عاطف، وفجأة لم أجد حسام صديق عاطف يجلس معنا،فقمت أبحث عنه فى شقة عمى،فإذا بى أجده فى إحدى الغرف وهدى بين أحضانه!!!.

وفجأة أيضا"صحوت من سباتي وصرت أتحسس جسدى وفراشى لكي أتيقن أننى كنت أحلم،فلم تغفل عينى لحظة حتى الصباح وأنا فى حالة غريبة لاهى بالصحو ولاهى بالنوم، لاأدرك شيئا"ولاأعى سوى مارأيت فى حلمى،وصرت أسائل نفسي:أيكون قدحدث هذا حقا"فيما قبل؟!أم يمكن أن يتحقق فى يوم من الأيام؟!الالا.لايمكن أن يكون قدحدث هذا ولايمكن أن يحدث،فأنا أثق فيها جيدا"،وأعلم تماما"أن حسام لايمكن أن

تواتيه الفرصة ليفعل ذلك،إذن بماذا يمكن أن يفسر هذا الحلم؟ لابد أن يكون السبب هو التفكير فيما قاله والدى طيلة أمس ونتيجة حتمية لإختزانه فى عقلى الباطن،ولكن ماهى العلاقة التى يمكن أن تربط بين حسام صديق عاطف وأخى وسام؟فربما يكون أخى وسام يحب هدى وأيضا"ربما يكون حسام صديق عاطف قد تقدم لخطبة هدى وأعتقد أن ذلك هو التفسير الوحيد والمنطقى له،وهو نفسه التفسير الصحيح الذى أدركته فيما بعد بفطنتى،ولقد كان لهذا الحلم أثرا"فى نفسى جعلنى أحد من عواطفى بعض الشئ؟وقد كان ذلك باديا"علىَّ وخاصة بعد حضورى من الكلية اليوم الإثنين وذهابنا جميعا"إليهم،فقد فوجئت بعد مجيئى بوالدى يقول لنا على المائدة أثناء تناول الغداء "هيا تعجلوا لنذهب لزيارة عمكم،وحينما وصلنا إلى بيت عمى كانت الساعة تدق الرابعة عصرا"،وما أن دلفنا إلى

الداخل حتى وجدناهم جميعا"جالسين ومعهم حسام صديق
عاطف،فلم أحاول أن أنظر إليها أو أوجه لها أى حديث،
وصرت أسائل نفسى:ماالذى أتى به الآن إليهم؟ولماذا يجلسون
جميعا"معه وخاصة هدى فلايصح أن تجلس فى وجوده كأنه
منهم،ومما لاشك فيه أنه قد تناول الغداء معهم،وماذا يضيرنى
إن حدث ذلك؟وماذا يعود علىَّ إن لم يحدث؟وماذا يضيرنى من
وجوده؟ولماذا يسرنى عدم وجوده؟بل وأتضايق من مجرد رؤيته
عندهم،حقيقة لقد كنت أتضايق من وجوده،فكثيرا"ماكنت
أراه فى بيت عمى،وبعد قليل إنصرف حسام فدعانا عاطف
للعب الورق أناوأخى وسام وعادل،فإنتهزت الفرصة وسألته
عن سبب وجود حسام كثيرا"عندهم،فأجابنى بأنه أعز أصدقائه
كما أن والده ثرى وأنه يخرج معه دائما"للتنزه فى سيارته
المرسيلس بنز الفارهة الثمينة،فقلت له:ولكن يبدو أنه مدلل

ومستهتر وتافه فرد:بأنه يكفى أن لديه مالا"والمهم أنه غنى،
وفهمت من حديث عاطف معى أنه ربما قد إفتعل صداقته
بحسام،بل لقد إصطنع صداقته...لحسام لمجرد أن أباه من
الأثرياء فهذا يكفى لمصادقته،وكذلك كانت أسرة عمى
صديقة لأسرة حسام،كما أن أخته كانت تأتى كثيرا"لزيارة
هدى،وأذكر أنه أثناء لعبنا للورق أن هدى حضرت إلينا
لتسأل من منا يرغب فى أخذ فنجان من القهوة فسمعتنى أقول
لعاطف ولكن حسام هذا سخيفا"فردت بالعكس إنه ظريف،
فقطعت الحديث وقلت:أنا أرغب فى أخذ فنجان من القهوة،
فردت أنا عاملة حسابك من غير ماتقول،فلم أحاول و لم
أستطع أن أنطق بكلمة أو حتى مجرد كلمة شكرا"،ولكنى
حاولت أن أتصنع إبتسامة تخرجنى مما أفكر فيه فلم أستطع،فقد
كان تفكيرى مشتتا"فيما قالته لى بين إستفزازها ومضايقتها لى

بقولها إن حسام ظريف،وبين إرضائها لى بقولها أنها تعمل حسابى دون أن أقول،وظل تفكيرى مشتتا"إلى أن قمنا للعودة إلى بيتنا،فودعتنى بإبتسامتها الرقيقة وضغط يدها المعتاد الحنون ليدى،وظل عقلى شاردا"يتخبط بين مايقع من أحداث وأقاويل ،وبين قول والدى وحلمى وهى فى أحضان حسام صديق عاطف وبين قولها لى أن حسام صديق عاطف ظريف،فربما كانت تحاول أن تستفزنى بهذا القول،أوربما كانت تقصد ذلك حقا"ولمالا؟فربما يكون قد تقدم لخطبتها وربما تتمناه زوجا"لها برغم تفاهته وإستهتاره وغبائه،ولمالاتتمناه زوجا"لها فعلى حد قول عاطف إن والده غنى وهذا وحده يكفى لأن يكون زوجا"لها،وربما كان يمنعها من الموافقة عليه هو حبها لى وخاصة بعد عهدها معى،ولكن لا.لا فهى تعمل حسابى دون أن أقول.أجل إنها تعمل حسابى فى أى شئ وفى كل شئ دون أن أقول،ولكن حسام.حسام(٥٠)

الفصل السادس

شئ من الواقع

(٦)

مضى شهر آخر كنت خلاله قد إنتهيت من آداء إمتحاناتى
العملية للفصل الدراسى الأول،حتى كان آخر يوم فى إجازة
نصف العام،كان يوم الجمعة الثامن عشر من شهر يناير سنة
ألف وتسعمئة وخمس وثمانين،وأذكر تماما"هذا اليوم لماوقع فيه
من أحداث عزيزة إلىّ وحبيبة إليها،ففى هذا اليوم إستأذنت
والدى وتوجهت لزيارة عمى-أو لرؤية هدى-فسلمت عليهم
وجلست مع عمى،وبعد برهة حضرت هدى لتسلم علىّ،
كانت عيناها تتراقص من الغبطة والسرور وهى مقبلة علىّ،لقد
كانت عيناها تذهب يمنة ويسرة مصوبة إلىّ لتتأكد أننى أنا
الذى دققت جرس الباب منذ دقائق،فرسمت على وجهى
إبتسامة سعادة كالتى رُسِمَتْ على وجهها،فهى تعلم تماما"أننى
أحضر لرؤيتها فقد كان مجرد رؤية كلا"منالآخر هو غاية
أمانينا ومنتهى سعادتنا،وأذكر أن عاطف قد إمتدت يده إلى

حافظتى وأنا أتأكد من وجود شيئا"بها،فأسرعت بأخذها خشية أن يفتحها فيرى بها صورة هدى،وبعد فترة دعانى عاطف للجلوس فى البلكون وكانت هذه البلكون توجد فى غرفة هدى فتبعته،وفى الغرفة وجدت هدى تجلس إلى مكتبها الذى يوجد على يسار باب البلكون،والجالس إلى هذا المكتب يكون ظهره للحائط ويمكنه أن يستمع إلى كل كلمة يقولها من يجلس فى البلكون،لست أدرى لماذا فعل ذلك عاطف ودعانى لهذه الجلسة،ولكن من حديثه معى أدركت أنه يعلم مابقلبينا أنا وهدى،لهذا ربما كان يريد أن يختلق فرصة للتحدث معى بطريقة غير مباشرة يستطيع أن يستشف منها حقيقة هذا الأمر والتأكد منه،وإسمحوا لى أن أقص عليكم مادار بيننا من أحاديث سوف تضحكون وتسخرون منها فقد تبدو لكم كتفاهات وسخافات وأقسم لكم أنى لم أذكرها إلالأنى أجد

لذة من ذكرها وإستمتاع بإسترجاعها،فماأن دخلنا إلى

البلكون حتى بادرنى بقوله:

ماذا عن أخبارك الدراسية والعملية؟

الحمد لله مر الإمتحان بسلام وماهى إلاشهور وأصبح مهندسا"

وفقك الله.وماذا عن أخبارك العاطفية؟

ليست لى أية أخبار من هذا النوع.

أحقا"ماتقول؟!وماذا عن ليلى؟!

ليلى.أية ليلى؟

أليست توجد بهذه الحافظة صورة ليلاك؟

وكيف عرفت؟

لأنك أخذتها منى بسرعة ورجوتنى ألاأفتحها أمام عمك خشية

أن نراها.أليس كذلك؟

هوكذلك.وماذا تريد إذن؟

أريد أن أراها.لأتأكد أن ماأفكر فيه حقا".

هذا مستحيل.

وبعدها وجدته يبتسم.فأدركت أنه قد تأكد من أن صورة ليلى هى صورة أخته هدى،ثم قطع علّى تفكيرى بسؤاله:

وماذا عن أمانيك؟

أمانىّ نوعان؟

كيف؟

نوع مستحيل ونوع غير مستحيل.نوع لن يتحقق ونوع يمكن أن يتحقق وإن لم يعد سهلا"فى هذه الأيام.

هاتِ النوع الأول.

أن أكون أحد إثنين.

ومن هما؟

أن أكون أحد الشعراء العظام كأحمد شوقى،أوأكون عالما"فى

الهندسة كفيثاغورث مثلا"وكلاهما مستحيل.

إذن فأنت شاعر هوايتك نظم الشعر!

هو كذلك.

ألاتسمعنى إحدى قصائدك؟

لامانع.سألقى عليك بأحلى الكلمات.

أهذا هو عنوانها؟

أجل.

إذن ألقى على مهل حتى أصغى جيدا".وليتها تكون أحلى الكلمات حقا".

هى فى رأيى أغلى وأحلى الكلمات بحق فإستمع فى صمت.

ها هى:

حبيبتى شمس حبى

ياصاحبة الوجه القمرى

أنت شدو فى فمى

أنت لحن فى دمى

تتغنى به كل أطيار الربيع

وكل مافيك بديع

كل مافيك رقيق وديع

حبيبتى أميرة الرقة

ويامليكة طهارة

جمال الحب الأخضر

والأمل الوردى

وبحبك أحب كل الناس

ومعك أكون أسعد الناس

فياأحلى وأطهر وأغلى الناس

ويا حبيب القلب ياقلب الحبيبة

كل قلب تصتفيه هو قلبى

كل شوق ترتضيه هو شوقى

كل شئ تشتهيه هو منى

كل حب تحتويه هو حبى

لأنى أسقيت الناس

حبى

وبعد أن إنتهيت من إلقائها سألته:

هيه مارأيك؟

لابأس.ولكن أليس من الأفضل أن تقول ياصاحبة الوجه المنير بدلا"من القمرى؟

ولماذا؟لأن القمر ماهو إلاصخور وأحجار كالأرض التى نعيش عليها وهذا يعنى إفتقاده للإحساس.

ومالى أنا ياأخى بالصخور والأحجار؟!أنا لى ماأراه و لم أصعد

إليه لأرى صخوره وأحجاره.وماأراه منه هو الضياء والنور

وهما يبعثان على الإحساس فهما إذن مصدر له.

وماذا تقصد بالمقطع الأخير؟

أقصد أننى أكون فى منتهى السعادة مادامت هى ستكون

سعيدة سواء"أكانت سعادتها معى أو مع غيرى.

هى أحلى الكلمات حقا".ألاتسمعنى واحدة أخرى؟

ليس الآن فأنا لم أعد أتذكرها جيدا"هذه الأيام لإنشغالى فى

المذاكرة والبحث.وسأعطيك النوتة عندما تحضرون عندنا فى

المرة القادمة.

إذن فإحكى لى عن إحداها؟

أجمل قصائدى هى بعنوان "مع الليل".

ومافكرتها؟

هى عبارة عن قصة تتلخص فى أنه يوجد حبيبان كلا"منهما فى

بيته لايدنو السبات من عيونهما.فيتحدث الحبيب إلى حبيبته فى الهاتف.ويتفقان على أن يلتقيا بعد دقائق على شاطئ النهر.

فقاطعنى بسؤاله:

ولما لاتتحدث إلى ليلاك فى التليفون؟أم تخاف أن يعرف أبوها وإخوتها مابقلبيكما؟

لأخاف ولكن هذا الأمر لم أفكر فيه.

إذن تكلم يا أخى.

ثم ساد بيننا صمت لدقائق.وفى هذه اللحظات كنت أتردى بين الشك واليقين،لاأدرى هل يعلم حقا"مابقلبينا؟أم هى صدفة بحتة صنعتها الأقدار لتزعزع مابقلبى من طمأنينة ورجاء؟ هل تكون قد أتت فرصة أو مناسبة أتاحت لهدى أن تقول لهم شيئا"عما بيننا من عهد وحب؟أوربما تكون لها مذكرات خاصة وقعت فى يد عاطف فقرأها وعرف ما بيننا،أوربما أدرك

عاطف ذلك من مسامراتنا ودعاباتنا فى مرات سابقة،أوربما قد فهم ذلك من تباشير السعادة التى ترسم على وجهينا حين نتلاقى،أوربما...أوربما...أوربما،ألف سؤال وسؤال ليس لها تفسير ولاتجد لها إجابات شافية تزحزحها لتخرجها من دائرة الشك،وتلقيها فتدخلها فى دائرة اليقين،ولكن كان لقول عاطف"إذن تكلم ياأخى"رنة تؤكد حقيقة إدراكه ويقين علمه، ولكنها لاتؤكد حقيقة إدراكى بإدراكه ويقين علمى بعلمه.

ثم قطع عاطف صمتنا بسؤاله:

وماذا عن النوع الذى يمكن أن يتحقق؟

فأجبت:

هى أمانّى متواضعة أولها بالطبع أن أحصل على فرصة للعمل بعد التخرج فى شركة أو مصنع أستقر فيه ويؤهلنى لأن أبدأ فى تحقيق أمانّى الأخرى وهى أن أكمل دراستى.وحينما يجتمع لى

مبلغ من المال يمكننى أن أنشر قصائدى فى ديوان فربما أنجح فى هذا الطريق،وأن يكون لى سيارة خاصة صغيرة.وأن أحصل على شقة صغيرة أستطيع أن أؤثث فيها بيت الزوجية مع فتاة طيبة رقيقة خفيفة الظل متعلمة ومثقفة ولاداعى لأن تكون جميلة إلى حد كبير.

وبالطبع هذه الفتاة ستكون ليلى؟

إن هذا يتوقف على الأقدار فكل شئ نصيب.

معك حق.وفقك الله لتحقيق أمانيك المستحيلة وغير المستحيلة.

ثم إستأذننى للخروج لحظة على أن يعود لمرافقتى ثانية،ولست أدرى لما تركنى وحدى،ولكنى عللت ذلك بأنه ربما ذهب إلى عمى ليقصَّ عليه ما تحدث فيه معى وليذكر له ماقلته،هذا إن كانوا يعلمون حقا".أوربما ليتيح لى فرصة الدخول إليها ومحادثتها،ولكنى لم أفعل،فقد كان تفكيرى متجها"إلى ما يقع

من أحداث بالإضافة إلى أننى كنت أشعر أن شيئا"ماينمو
بعقلى ويكبر ولكنى لاأدرك كنهه،ولكنه كان شيئا"غريبا"ينمو
بسرعة مذهلة يردنى دائما"إلى الواقع فيخلع عنى ثوب الخيال
ويلبسنى رداء الحقيقة.

ثم قطع عاطف بعودته إلىّ تفكيرى وتأملاتى وبعد قليل تبعته
هدى وماأن دخلت إلينا حتى قال لها وهو يضحك:

ألاتدرين؟

أدرى ماذا؟!

إن أحمدا"يحب ليلى ويرجل لها شعرا".

فقالت باسمة:

لقد سمعته وماأسعدها به.

فقلت لها:

ولكنها لاتعلم.

فسألتنى ضاحكة:

ولما لم تقل لها؟

ثم خرج عاطف فقلت لها:

إنى مشتاق.

فقالت:إلى منْ؟إلى ليلى!.

ألاتعرفينها؟

فأجابت باسمة:كلا.

فقلت مداعبا":ولاأنا.ولكن ألاتجدين لى ليلى جميلة مثلك من زميلاتك بالكلية لتكون لى رفيقتى وشريكتى فى رحلة الحياة؟

فقالت ضاحكة:لايوجد ومنْ ترضى بك؟

فقلت ضاحكا":أنتِ.

ثم إنعقد لسانى عن الكلام فقد دخل عاطف فجأة وأظنه قد أصغى إلى حديثنا،أو ربما قد سمع آخره وهو قادم إلينا وفى هذه

المرة دعانى للخروج والجلوس مع عمى،فدار بيننا حديث لم أكن أتوقعه ولم يخطر ببالى لحظة ولكنى أدركت مغزاه فيما بعد حينما تكررت المناقشة فى هذا الأمر مرة أخرى.

فقد سألنى عاطف:

وماذا عن مشاريعك؟

لقد قلت لك أننى أفكر فى الإستقرار بإحدى الشركات.

ولكنى أريد أن أحدثك عن مشروع كبير وعائده أكبر.

وماهو؟

يمكنك أن تحصل على قطعة أرض زراعية تجعلها مزرعة كبيرة، ويمكن لوالدى أن يسهل لك طريق الحصول عليها بحكم عمله فى الوزارة.

ومالى أنا بالأرض الزراعية.إنى لاأفهم فيها شيئا"وليست لى أية دراية بالشئون الزراعية.

إن هذا المشروع لايحتاج إلى أية خبرة أو دراية.

ليكن.فمنْ أين لى بالأيدى العاملة ورأس المال؟

لنعمل ونزرعها سويا" بجد وإجتهاد فيعود علينا عائدها وهى التى ستخلق لنا رأس المال.

كن واقعيا"ياعاطف ولاتكن خياليا".

وبعد قليل حضرت هدى لتجلس معنا فلاحظت وجود جرح صغير أعلى أنفها الرقيق فسألتها مشيرا" إلى مكان الجرح فى وجهى وأنا أقول لها:

ماهذا أكنت تتعاركين؟

فتلمسّت مكان الجرح فى وجهها وقالت:

ومالك أنت.

فقلت:أتردين علىَّ بهذه الطريقة؟!

ثم توجهت لعمى وقلت باسما:

أيصح ياعمى أن ترد على أبيه أحمد بهذا الأسلوب؟!

فقال ضاحكا" : لايصح ومعك حق فيما تقول.

وأذكر أننى حينما نظرت إلى وجه هدى لأسألها عن سبب الجرح،أننى لم أحاول أن أنظر إلى وجه عمى ولكن خاطرا" لاح بعقلى يؤكد لى أنه فى هذه اللحظة كان قد نظر إلىّ نظرة الفاحص المدقق،ليؤكد لنفسه أننى أحب إبنته هدى،وبعد قليل سلمت عليهم وإستأذنت للعودة إلى بيتنا فى مدينتنا الصغيرة، فخرجت وأنا فى غاية السعادة لإحساسى أن عمى وأسرته يعلمون مابقلبينا من حب وود،ومابيننا من عهد ووعد ألا نكون لسوانا بل وزاد هذا من قدرها وقدرهم عندى،وإن لم أكن متيقنا" تمام التيقن.

الفصل السابع

رنين الهوى

(٧)

ثم مرت أيام عليّ كان فيها قلبي سعيدا"غاية السعادة،ولايكفي
أن أقول أن قلبي كان سعيدا"غاية السعادة فسعادته لم تكن لها
غاية وهنائه كان بلانهاية،وحقيقة أجد نفسي عاجزا" أن أصف
لكم مدى سعادته ومبلغ هنائه،بل إن كلمتي السعادة والهناء
لاتستطيعان ولاتكفيان أبدا"أن تعبرا عما كان عليه قلبي السعيد
في هذه الأيام،فقد كنت أشعر وكأنني أطير بجناحين ملءالسماء
كلها،كأن السماء بطولها وعرضها وبإمتدادها وإتساعها
اللانهائيين لاتتسعان ولاتكفيان إلالشيئين إثنين هما جناحيّ،أي
سعادة تلك؟!.وأي هناء هذا؟الذي يجعلني أنا..أناالمخلوق
الضعيف أملك هذي السماء بجناحيّ،وأي؟هذان الجناحان غير
المرئيين اللذان يمكنني بهما أن أملأ السماء كلها بطولها وعرضها
وبإمتدادها وإتساعها،وأي شعور هذا وأي إحساس؟!الذي
يجعل قلبي سعيدا"غاية السعادة إن كانت لها غاية وهنيئا"نهاية

الهناء إن كانت له نهاية،ولست أدرى ماسر هذه السعادة وهذا الهناء؟ألِأنهم يعلمون ولايمانعون حبنا؟أم يكون السبب هو الحب ذاته؟!ألِلحب هذا التأثير وهذه القوة التى تجعل القلب سعيدا"؟ وتجعل لى أنا العبد الضعيف جناحين ملء السماء بأكملها، مابال هذا الحب مغرورا"إلى حد أن يطوى السماء؟ ومابال القدر كريما"غاية الكرم وسخيا"هذا السخاء حتى يلبى دوما" النداءكلما وجهت الدعاء؟حقا"،ففى مساء يوم الإثنين الرابع من فبراير سنة ألف وتسعمئة وخمس وثمانين حيث كنت فى غرفتى أستذكر دروسى وفجأة قمت أفتح النافذة وأنظر إلى السماء،فوجدت القمر بدرا"فى تمام إكتماله فأخذت أنظر إليه وأحدثه كأننى أنظر وأتحدث إلى وجه حبيبتى.

ثم لاح لى خاطر أننى لو توجهت إلى القدر بالدعاء وطلبت منه أن أسمع صوت حبيبتى فى الهاتف إذا كانت تحبنى قدر حبى لها،

فربما يحقق رجائي -ففعلت- ثم شرد ذهني للحظات فتناسيت

تماما"هذا الرجاء أو هذا الدعاء؟وبعد ذلك خرجت من غرفتي

فوجدت أمي تجلس على الأريكة الموضوعة بجانب المنضدة التي

يوجد عليها الهاتف في صالة الشقة،فجلست إلى جانبها ثم

رفعت السماعة فسألتني:

من ستطلب؟

فأجبتها:سأطلب بيت عمي للسؤال عليه.

لاداعي.أن تطلبه الآن فربما يكون نائما"أو غير موجود.ولكني

لم أتراجع فنظرت إلى ساعة الحائط فوجدتها السابعة تماما"،وما

أن أدرت القرص وإنتهيت من طلب الرقم فدق جرس تليفونهم

ورفعت السماعة حتى جاءني صوتها عذبا"رقيقا":

آلو.

مساء الخير.

مين حضرتك ياأفندم؟

ألا تعرفيني؟

أناآسفة.لاأعرف منْ بالضبط؟

ألم تسمعي هذا الصوت من قبل؟

أعتقد ذلك.

حسنا"كيف ذلك يابنت؟!

الآن عرفتك.فليست هذه بأخلاق شعراء عظام أو مهندسين علماء.

أحسنت يامدموازيل!إذن لنبدأ من جديد.كيف حالك ياآنسة هدى؟

بخير والحمد لله.

وكيف حال عمي؟دعيني أحدثه.

بخير ولكنه نائم.هكذا توقعت ماما.ولهذا كانت لاتريدني

ألاأتصل بكم الآن!

وأين هي؟دعها تحدثني.

هاهي.

فأعطيت السماعة لوالدتي فقالت لي:"ألم أقل لك"ثم توجهت إلى غرفتي فقطعت ورقة اليوم الإثنين من النتيجة المعلقة على الحائط وسجلت عليها ميعاد مكالمتي معها في الهاتف،فقد كانت هذه عادتي أن أسجل أي حدث لي مع هدى على ظهر الورقة التي بها نتيجة نفس اليوم.

ثم مرت عدة أيام كنت خلالها أفكر في رمز أو علامة عن طريق الهاتف،حتى يضمن كلا"منا أن يجد الآخر في إنتظاره عند طلبه حينما يدق جرس الهاتف،وحتى نستطيع أن نتحدث في أي وقت حينما تكون الفرصة سانحة لذلك،فهداني تفكيري إلى أسلوب عجيب وهو أن أطلب الرقم وعندما يدق جرس

تليفونهم مرة أو مرتين أضع السماعة فينقطع الإتصال،وظللت
على هذه الحال كلما سنحت فرصة أو وجدت متسعا"من
الوقت مؤكدا"لنفسى أنها لابد ستعرف أننى أنا الذى أفعل
ذلك،وماهى إلاأيام قلائل حتى صار هاتفنا على نفس الحال
يدق دقة أو دقتين على الأكثر ثم ينقطع الجرس،فصارت هذه
الطريقة علامة"أورمزا" دون ترتيب أو إتفاق بيننا،وأصبح هذا
الرنين البسيط المتقطع كسيمفونية من أرق سيمفونيات الحب
ولحنا"كأروع ألحان الهوى،وكلما سمعت النداء أو تطرقت إلى
مسامعى نغمات اللحن أهرع إلى الهاتف فأحتضنه فى صدرى
دون أن يرانى أحد خشية أن يصفنى بالجنون،فقد صار بينى
وبين الهاتف ودٌّ من نوع غريب لايمكن أن يصفه أى إنسان فى
العالم،وربما تضحكون وتسخرون منى وقد تتساءلون أى ودٍّ
هذا الذى يمكن أن يكون بينى وبين الهاتف؟أو أى ودٍّ هذا

الذى يمكن أن يكون بين إنسان وجماد؟وكل ماأستطيع أن

أقوله أو أصفه أنه كان ودٌ من نوع غريب،ولكنه ودٌ يسعدنى

ورنين ينشينى ولحن يطربنى.

وظللنا على هذه الحال نعزف لحن الهوى بأيدينا على دائرة

الهاتف كأننا نحيا فى مدائن العشق الأزلية،وصار الهاتف كقيثارة

حب يعزف عليها أروع ألحان الهوى،حتى كان لقاؤنا الأول

يوم الثلاثاء الخامس من مارس سنة ألف وتسعمئة وخمس

وثمانين،وأذكر تماما"هذا اليوم لما وقع فيه من أحداث خطيرة

ومثيرة فهو بحق يوم لاينسى.

ففى هذا اليوم حيث كنا فى أحد المعامل بالكلية،وفجأة حدث

حريق هائل نتيجة خطأ من أحد الزملاء حيث وقعت من يده

زجاجة بنزين على إحدى فوهات اللهب،فإندلعت النيران فى

كل أرجاء القاعة وكانت النيران تجرى على الأرض وتطير فى

الأسقف كأنها السحب فى سماء نارية ملتهبة،وكاد يحدث،
إنفجار هائل لولا أن الله سلم،وغالبا"فى مثل هذه الأحداث
لابد من حدوث خسائر،فلقد إحترق هذا الزميل لدرجة أن
أنسجته المحترقة كانت تتدلى من جسده،بالإضافة إلى بعض
الحروق البسيطة بزملاء آخرين،وبالطبع لم نستمر فى الدراسة
هذا اليوم حيث تم إستدعاء سيارتين للإسعاف نقل فيها هؤلاء
الزملاء إلى المستشفى،ثم تفرق الجميع للذهاب إلى بيته،ولست
أدرى كيف خرجت سليما"من هذا الحادث فقد تألمت كثيرا"
لأجل زملائى وكنت مضطربا"قلقا"مذهولا"من هول مارأيت،
ولأنى لم أكن أصدق أننى خرجت سليما"دون أن أصاب بسوء
أو ينالنى أذى،ناهيكم عن الآلام الشديدة التى عصفت بى
حزنا"على زملائى.

وما أن عدت إلى البيت فى الساعة الرابعة والنصف ظهرا"،حتى

وجدت أبي وأمي وأختي مها يستعدون للخروج،ولم يكن أخي

وسام قد عاد من الكلية بعد،فعلمت أنهم سيذهبون لزيارة

عمي بعد أن سألوني عما بي وبعد أن قصصت عليهم ماحدث،

فقد كان باديا"عليَّ أن هناك شيئا"ماحدث،وبعد خروجهم

تناولت الغداء وأعددت شايا"أحتسيه،ثم إضطجعت على

إحدى الأرائك الموجودة بصالة الشقة للإسترخاء قليلا"،حتى

أهدأ أو لأنسى هذا الحدث المروع،ولكنى لم أهدأ ولم أستكن

فقد كان نبضي مرتفعا"ودقات قلبي قوية متتالية،فقمت لأتصل

بأحد الأصدقاء ولكنى تراجعت ثم نظرت فى ساعة الحائط

فوجدتها تقترب من الخامسة والثلث،فأمسكت بسماعة

التليفون وأدرت القرص لأطلب بيت عمي عَلْيٍ أحظى بحديث

مع هدى،وبعد أن إنتهيت من طلب الرقم جاءني الخط سريعا"

مشغولا"فزادت دقات قلبي سرعة وعنفوانا"،فأدركت بالحاسة

السادسة أو بالتخاطر الروحي "التليباثي"كما يسميها علماء النفس والحواس والفلسفة أن هدى هي التي تطلب الإتصال، وماأن سمعت الجرس يدق دقة واحدة حتى وجدتني فجأة أضع السماعة فأقطع الإتصال،وبعدها مباشرة دق هاتفنا دقتين وماأن إقتربت منه وإمتدت يدى لرفع السماعة حتى إنقطع الجرس،فتيقنت أن هدى هي التي تطلبنا فأعدت الإتصال مرة أخرى،ولكني لم أتراجع هذه المرة،وماأن جاء الخط ودق الجرس حتى رفعت السماعة سريعا"فجاءني صوتها:

آلو.

أتحداك حبيبـــي أن تحبني كما أحبك.

وماأدراك أن حبي أقل من حبك؟

أتحداك حبيبـــي أن تعرف الحب مثلي.

لا.هذا تجريح لايمكن السكوت عليه.فمن أين علمت أني

لاأعرف الحب مثلك؟بل وأعرفه أكثر منك.

أتحدى أن يعرف قلبي لحنا"لهواك كألحاني.

أوافقك على ذلك.

أتحداك أن تعرفني.وتعرفني حقا"لوتعرف القلب المشتاق إليك.

كيف؟

بقلبي حب جبار-حب من نار.يتأرجح فيه كبركان من شمس.

ينفجر ويدمر كل شئ.

تقول ضاحكة:اللهم إحفظنا.

وهل تعتقدي أنك تمونين عَلّي حتى أدمرك.

ألم تدمرني بعد؟وماذا بعد ذلك؟وأنا لم تعد لي قدرة على

إحتمال حبك وأشواقك وإسعادك.

أحقيقة أنت سعيدة بي.

وكيف لاأكون سعيدة بك؟فأنا لاأستطيع أن أصف كم يكون

قلبي سعيدا" معك.فكم يسعدني نداءك وكم يطربني لحنك؟!

ولكني قلق بعض الشئ.

لماذا؟

صارحيني.ماسر وجود حسام صديق عاطف كثيرا" عندكم؟

حقيقة.لقد تقدم لخطبتي وطلب يدي ولكني لم أقبله؟

وأيضا" لم ترفضيه او إلا ماتردد عليكم.

صدقني لن أكون لغيرك.وأنت تعلم كم أحبك ولست في

حاجة أن أثبت لك ذلك!

وهل يعلم أحد مابيننا؟

لا لم أقل لأحد.

إذن كيف تتحدثين إليّ الآن؟!

لقد إنتهزت فرصة حضور عمي وتنت فاطمة إلينا منذ قليل

وإنشغال بابا وماما معهم،فنقلت التليفون إلى غرفتي علّى

أحظى بحديث معك وإلى اللقاء الآن لأنى أسمع ماما تنادينى.
إلى اللقاء،مع السلامة.
ثم وضعت السماعة وأخذت أفكر فيما قالته لى فأحسست بشيء من الطمأنينة والسعادة،ولكنى رغم ذلك كنت أشعر بحيرة لاأدرى كنهها ولاأعلم مصدرها،فقد كنت أحس أن هناك شيئا"غريبا"لابد أنه سيحدث ولكنى لم أكن أدرى ما هذا الشيء؟ولم أستطع أن أدرك ماسر هذا التوافق العجيب الذى يمكن أن يجمع بين حدثين أحدهما شقى والآخر سعيد؟
وماتفسير هذا الإتفاق الغريب بين حادث الحريق المروع وبين حديثى مع هدى فى هذا اليوم؟فربما كانت الصدفة البحتة هى التى صنعت هذا التوافق،ولكنى أيقنت فيما بعد أنه توافق صنعته الأقدار لتفهمنى ولتثبت لى أن الحياة مزيج من السعادة والشقاء وخليط من الهناءة والعناء،بل والأغرب من ذلك أن أحق مها

بعد حضورها مع أبي وأمى فجأة وجدها تقول لى:

أبيه أحمد أريد أن أقول لك شيئا".

وماهو؟

عندى لك عروس جميلة أريد أن تتزوجها ياأبيه!

فقلت ضاحكا":ومن هى ياترى؟!

أبلة هدى.

ولماذا؟!!!

لأنى أحبها جدا".

فقلت هامسا"دون أن تسمعنى،ليت ذلك يحدث فأنا أتمناها من كل قلبى!!!.

الفصل الثامن

غيم فى سماء الحب

(٨)

دق جرس باب البيت دقات كثيرة وسريعة متتالية كأنها تتراقص،وكانت الساعة تقترب من الخامسة مساء"يوم السبت السادس من شهر أبريل سنة ألف وتسعمئة وثمانين،وكنت فى ذلك الوقت أجلس فى غرفتى لأستذكر بعض محاضراتى وكان باب غرفتى مفتوحا"،وأناجالس على مكتبى فرفعت رأسى فإذا بهدى مهللة فرحة تقف فى الصالة بوجهها المشرق المنير وإبتسامتها المعتادة تصافح والدى وتداعبه بشئ من المرح والمزاح الخفيف،وعيناها تنظر إلىّ فى سعادة غامرة فقمت لأسلم عليها،ثم نزلت خارج البيت لإستقبال عمى وزوجته فقضينا وقتا"ظريفا"،وحين حانت ساعة إنصرافهم أمرنى أن أخرج خارج البيت لأرفع الغطاء عن السيارة حتى يقوم بتوصيلهم،ونزل معى عاطف فسألنى ألم تتعلم القيادة بعد؟ فصمت لحظة ثم أجبته بأنى لن أتعلمها إلاعندما أستطيع أن

أشترى سيارة من مالى الخاص فسيارة والدى شئ وسيارتى أنا
شئ آخر،والذى جعلنى أذكر هذا اللقاء،أن هدى سألت
والدتى عن صورتها التى أعطتها لها من قبل،بحجة أنها تريد أن
تطبع منها عدة صور أخرى ثم تعيدها إليها ولكن أمى أجابتها
بألاتسأل عن هذه الصورة مرة ثانية،فعللتُ ذلك أن هدى تريد
أن تعرف هل أحمل صورتها معى أم لا؟وهل أبى وأمى يعلمان
مابيننا؟أو بمعنى أدق هل صرحت أنا لوالدىَّ بحبى لهدى ورغبتى
فى أن تكون لى؟!كما أذكر أننى قمت فتركتهم وذهبت إلى
غرفتى وأخذت من درج المكتب المفكرة التى أسجل فيها
قصائدى،فقد خطر فى ذهنى فكرة أردت أن أسجلها حتى
لاأنساها،وبعد قليل حضر إلى غرفتى عادل وقال لى أن عاطف
أخبره أننى أكتب شِعرا"جيدا"،فسألنى هل يمكننى أن أطلعه على
إحداها فأعطيته المفكرة فقرأ منها وأبدى إعجابه الشديد بها

ورجانى أن أعطيها إليه ليقرأها ولكنى قلت له أنها النسخة الوحيدة عندى وأنى سأقوم بنسخها مرة أخرى ثم أحضرها إليه.

ثم مرت علينا أيام كانت أحلى وأشهى أيام حبنا وأرغد وأهنأ أيام سعادتنا،ولايشاركنا سعادتنا هذه سوى رنين الهوى أو دقات الهاتف فقد أصبح ضرورة من ضروريات الحياة التى لايمكننا الإستغناء عنها أو عادة من العادات اليومية التى لايمكن للإنسان الإقلاع عنها،وهكذا إستمر رنين الهوى حتى كان يوم الإثنين الثامن من شهر أبريل،وفى حوالى الساعة الواحدة ظهرا" حيث كنت مازلت عائدا"من الكلية بعد يوم دراسى قصير، حدث أن دق الهاتف دقتين ثم إنقطع الجرس وكنت أجلس مع والدتى حيث عادت على التو من العمل،وكنا نجلس على إحدى الأرائك بالقرب من الهاتف فرفعت السماعة وهممت

للإتصال ببيت عمى،فسألتنى من ستطلب؟فأجبتها أنى سأطلب
بيت عمى للسؤال عليهم،وبعد أنى إنتهيت من طلب الرقم
جاءنى صوت عادل وأخطأت فى تمييز الصوت فظننته أنه
عاطف،لأنى كنت أفكر فى هدى وتوقعت أننى بمجرد الإتصال
فإننى سأجد هدى،ولم أجد سببا"أعلل بها الإتصال بهم سوى
أن أقول أن والدتى هى التى طلبت منى الإتصال للإطمئنان
عليهم،ثم أعطيت السماعة لأمى وتأكدت فى هذه اللحظة أن
عادل هو الذى حاول الإتصال قبل أن أهم أنا بطلبهم،
وأدركت أيضا"أنهم يعلمون هذا الرنين بل ويعلمون أيضا"
مابيننا أنا وهدى،وزاد من تيقنى بصحة هذا الإدراك ماحدث
بعد ذلك،فلقد إتصلت بهم فى مساء اليوم التالى،وكان عاطف
هو أول من حدثنى،وأخذ يحفزنى بطريقة غير مباشرة للذهاب
إليهم حيث قال لى أننى ومنذ فترة طويلة لم أذهب إليهم،

فعللت ذلك بضيق الوقت أنه ربما أجد وقتا"وخاصة يوم
الخميس فأستطيع أن أذهب إليهم حيث أن هذا اليوم متروك
للبحث،وبالفعل ففى يوم الخميس الحادى عشر من أبريل،
حيث ذهبت إلى مكتبة الكلية وخرجت منها مبكرا"وكنت
أمام باب شقتهم فى الساعة الحادية عشرة تماما"،ولست أدرى
لما ترددت فى دق جرس الباب بل وفكرت فى العودة مباشرة
دون أن ألتقى بهم،فلقد شعرت ولأول مرة برهبة غريبة وأنا
أهم بالضغط على زر الجرس فقد كنت أحس داخلى أن هناك
شيئا"لابد سيحدث،وبعد قليل فُتِحَ الباب وكانت هدى فى
إستقبالى بإبتسامتها المعتادة ولمسة يدها الحنون،أعلمتم إلى أى
حد كانت الأقدار سخية وكريمة معنا؟ولكن...وآه من لكن
هذه،فياليتنى إستجبت لترددى فما دققت الجرس وعدت على
الفور دون أن ألتقى بهم،بل ياليتني ماذهبت إليهم قط فى هذا

اليوم!أتدرون لماذا؟لأنى ماأن دلفت إلى الداخل حتى وجدت
عمى جالسا"إلى إحدى مقاعد الأنتريه المواجه لباب الشقة،
وليس هذا هو السبب فليس مجرد وجود عمى هو السبب فى
أنى كنت أتمنى ألاأذهب إليهم فى هذا اليوم،وإن كنت أتمنى لو
كنت قد ذهبت إليهم فلم أجده فى هذه المرة بالذات فربما قد
تغيرت أشياء كثيرة مماحدث بعدذلك،بل ربما يكون ماحدث
بعد ذلك ومادار بيننا من حديث كان من الممكن جدا"
ألايكون وألايحدث إذا لم أكن قد ذهبت إليهم فى هذا اليوم أو
إذا لم أجده فى هذه المرة،أتعلمون لماذا كنت أتمنى ألاأجده؟
برغم أنى أحبه وأشفق عليه كوالدى تماما"!أتعلمون ماذا دار
بيننا من حديث؟!فبعد أن سلمت عليه وجلست إلى جواره
سألته:

لما لم تذهب إلى عملك اليوم؟

أشعر بشئ من الإرهاق ومتوعك صحيا"بعض الشئ.

سلمك الله.لابأس عليك.

وأنت كيف حالك؟وكيف حال جميع من عندكم؟

بخير والحمدلله.

وهل ذهبت إلى الكلية اليوم؟

أجل.فاليوم الخميس ليس به محاضرات وهو متروك للبحث والمكتبة ولكن لم أمكث بها طويلا".

وماذا تنوى أن تفعل بعد الإنتهاء من الدراسة؟

سأقضى أولا"فترة آداء الخدمة العسكرية ثم بعدها لابد من العمل.

وأى عمل تريد أن تعمل؟

بالطبع سأعمل مهندسا"فى شركة ما.

ولكنى أفكر فى مشروع ممتاز.

أى مشروع؟!

مشروع الأرض الزراعية.فالدولة توزع على الشباب قطع من الأراضى الزراعية المستصلحة ويمكنك أن تقيم عليها مزرعة كبيرة.

أنا لاأفكر فى هذا المشروع.ولاأميل إليه كما أنه يحتاج إلى مال كثير.ولايكون له ثمرة ولايأتى العائد منه إلابعد وقت طويل.

يمكنك أن تحصل عليها بسهولة.كما أن لديك موهبة فنية يمكنك أن تصل عن طريقها إلى درجة ممتازة.

رحم الله إمرأ عرف قدر نفسه.

كما يمكنك الدراسة لتنمية هوايتك الأدبية.

كل شئ يسرى بمقدار.

فقال بإصرار:إذن خذ الأرض.

فقلت بإصرار أيضا":الأرض ليست بمكانى.

ثم ساد صمت بيننا للحظات.فلقد دق جرس الهاتف وكانت المتحدثة إحدى زميلات عاطف،فأجابها عمى بأنه خرج منذ قليل ليذهب إلى الكلية وأخذت أفكر وقلت لنفسى حقا"إن هذا ليس بمكانى،وبعد أن إنتهت المحادثة قال لى:

تَعَلَّمْ ياأخى ولاتكن ساذجا".

ليس أفضل من أن يكون الإنسان جادا".

وحينئذ أدركت أنه يحاول أن يشجعنى بطريقة غير مباشرة، وأذكر أنه فى أثناء الحديث معه كان صوتى يتأرجح بين القوة والضعف،ويبدو أن هدى كانت تستمع إلى حديثنا فى إحدى الغرف وربما إعتقدت أن سبب تضايقى هو أننى تأكدت أنهم يعلمون كل شئ،بل إنها تعلم تماما"أننى أصبحت متأكدا"من ذلك تمام التأكد،ولهذا أتت فأخذت الهاتف وجلست على مقعد فوتيه بغرفة الصالون المواجه للأنتريه،وتركت الباب

مفتوحا"وإتصلت بإحدى زميلاتها وأرجح أنها فعلت ذلك محاولة إقناعى أن عادل ليس هو الذى حاول الإتصال،حين حدثت رنة الهاتف قبل إتصالى بهم فى يوم الإثنين الماضى، وكذلك لتثبت لى أنها تكون وحدها حين تفعل ذلك وأن أحدا" لم يعرف شيئا"حتى الآن.

وبعد أن إنتهيت من تناول الشاى مع عمى أبلغته أنى حينما أصل سأبلغهم بمرضه لكى يتصلوا به ويطمئنوا عليه ثم إستأذنت للإنصراف.

خرجت من بيت عمى ساهما"شاردا"مهموما"محموما"،فقد كنت فى حالة غريبة وحيرة مغرقة كأن خنجرا"مسموما" قد أغمد فى ظهرى أو كأنى أصبحت إنسانا" آخر غير ماكنت عليه من دقائق،مئات المبادئ والأساليب قد إقتلعت من أعماق كيانى وراحت تتبدل بسرعة فائقة،وحينما يتحول الإنسان

بسرعة فإن طريقة التحول هذه تكون ممزوجة بمتاعب عظيمة، لم أحس بها و لم أشعر بوجودها فى أعماقى لأنى كنت قد أخذت مايكفينى من الهم والألم،وأخذت أفكر فيما قاله لى عمى وأدركت حينئذ أنه لم يكن مجرد لقاء عابر صنعته الأقدار لتدبر أمرا" كان مفعولا".

وبعد أن وصلت إلى البيت ولاأدرى كيف وصلت؟!وبالطبع كان أبى مازال بالعمل ولكن أمى عادت مبكرا"فأبلغتها بمرض عمى،وكان أخى وسام موجودا"بالبيت فأمرته أن يتصل ببيت عمى ليطمئنا عليه،فردت عليه هدى وأثناء محادثتهما ومداعبة أخى وسام لها فى الهاتف لاحظت تباشير السعادة على وجهه، ولكنى لم أهتم بذلك و لم أستطع وقتها أن أعلل سر سعادته حين حديثه معها،وإن كان فى داخلى إحساسا"يحدثنى أن أخى وسام يحب هدى،ولكن هذا الأمر لم يكن يشغل عقلى

وتفكيرى بقدر ماكان يشغله حديث عمى معى،وساعدنى على ذلك إنقطاع الرنين لعدة أيام وفهمت من ذلك أن أغلب الظن أنهم بهذا الإجراء يريدون أن يقنعونى أنهم لايعرفون شيئا"، وحين أمعنت التفكير إطلعت على حقائق كثيرة كانت غائبة عن عقلى ولم أكن أعتقد أنها يمكن أن تأخذ لديهم مأخذ الجد،فلم أكن أصدق أن عمى يمكن أن يحلم بكل هذه الأحلام ويطمع أن تتحقق كل هذه الآمال،أو بمعنى أصح كل هذه الأطماع وكل هذا الثراء الذى صوره لى،وحينئذ أدركت تماما"أنهم يعلمون بمابينى وبين هدى وحقيقة بينى وبين نفسى لاأستطيع أن أنكر أنى أريدها لى،فحبى لها يجعل قلبى كصومعة فولاذية لايمكن إختراقها من أية فتاة أخرى تحاول أن تلفت نظرى إليها فدائما"كنت أقول فى خاطرى وعقلى أن هدى أحلى وأغلى،نعم أريدها...أريدها بكل خواطرى وجوارحى

وخلجات نفسى ولكن ماذا أفعل؟!
هل أخدعهم وأنافقهم وأجاريهم فيما يفكرون فيه وأنا بينى وبين نفسى لست مقتنعا" بأفكارهم وآرائهم وطباعهم؟! أأتركهم يثقلون كاهلى بما يريدون؟!أم ألقى بهذا الحمل عن أكتافى؟فما معنى أن يحدثنى عمى عن مشروع الأرض الزراعية؟ كما حدثنى عاطف فى هذا الأمر من قبل،ولكنى وقتها لم آخذ كلام عاطف مأخذ الجد فلقد كان كل مايهمنى فى الأمر كله هو هدى أولا"ثم عمى وإخوتها وأمها بعد ذلك،ولكنه الآن إتضح لى كل شئ فهم يريدوننى ليس لذاتى وكذلك عمى لم يريدنى لذاتى وربما يكون حب هدى لى ليس نابعا"من منطلق ذاتها،فهناك فرق كبير بين أن يريدوننى أناكإنسان قبل أى شئ. وبين أن يريدوننى فى ثوب آخر.
نعم هى الحقيقة...الحقيقة المرة التى وصلت إليها وأدركتها بل

وتيقنت منها وتأكدت بكل ما يحيط بها بعد تفكير طويل وعميق طالما أرقني وشغل تفكيرى،وطالما كبر ونما داخل عقلى حتى صار كالطوفان المغرق الذى يكاد أن يطغى بين الحين والحين.

نعم لقد كان لحديث عمى معى وتفكيره بهذه الطريقة صدمة كبيرة فى أوج سعادتى جعلتنى أرفض حاضرى ومستقبلى طالما سيكونا بيد غيرى،فهم لايريدوننى لذاتى ولكنهم يريدوننى لأكدح وأفلح فى الأرض الزراعية ولأصل إلى درجة ممتازة بالعلم أو بموهبتى الأدبية،وحينئذ...حينئذ فقط أكون جديرا" بهم وأرقى إلى مستواهم الرفيع الآن!إن كانوا قد تناسوا كيف بدأوا حياتهم،ولكنى لاأستطيع أن أخدع نفسى فحين أخدعهم أكون قد خدعت نفسى وأنا لاأحب أن أخدع نفسى أبدا"، وكذلك لأن الدنيا لاتعطى للإنسان كل شئ،نعم أريد هدى

...ولاأريد مشروع الأرض الزراعية وحتى إذا كنت أريده فمن
أين لى بالمال الذى يلزم له؟وإذا كان لدى هذا المال فما الذى
يجعلنى أذهب لأعيش فى أرض قاحلة جرداء؟أنتظرها سنوات
وأحاصر نفسى داخلها حتى تخضر فتترك هى قفرها وجدبها،
هذا بالإضافة إلى أننى لاأطمع فى أن أكون غنيا"ولاأطمع فى أن
أقيم مشروعا"مثل المزرعة،ولكن المشكلة الحقيقية هو المال وهو
الذى يهمهم ويشغل تفكيرهم،وإن لم يوجد فمن أين لى به
حتى أستطيع أن أبدأ مشروع كهذا،وإن كان عمى سيمدنى به
فأنا لاأقبل ذلك،هذا إلى جانب أنه لايمكنه أن يفعل ذلك
ولايجرؤ عليه ولايمتلك الشجاعة ليفعل ذلك وهو أيضا"أضعف
من أن يفعل ذلك،لأن عمى رجل ضعيف الشخصية مع
زوجته ولاأحب أن أكون مثله فى ذلك،بل هو ألعوبة فى يد
زوجته فهو لايملك من أمر نفسه شيئا"ولكنها تملك من أمره

كل شئ،وهو لذلك لن يستطيع أن يفرضنى زوجا"لإبنته،لأنها إمرأة متسلطة لايؤمن لها جانب ولاتعرف الرحمة أو الحب سبيلا"إلى قلبها فأنا أعرفهم جيدا"،كما أننى لن أستطيع أن أصل بموهبتى الأدبية إلى درجة أدبية ممتازة لأن هوايتى أو موهبتى تلك لن تصل بى إلى مايصبون إليه وإلاأكون بهذا مخادعا"،ثم لماذا يرهقنى بالتفكير فى مثل هذه الأمور الآن؟! أليس الأجدر والأفضل أن يتركنى حتى أنتهى من دراستى تلك ثم يبدأ فى جذب نظرى وشَدْ إنتباهى إلى مايريد بعد ذلك. حقا"إنهم لايريدوننى لذاتى ولكن يريدوننى فى ثوب آخر،ثوب يعجبهم ولايعجبنى أو ثوب يروق لهم ولاأقبله أنا،أتعلمون ثوب منْ أو ماهذا الثوب؟!!!إنه ثوب حسام صديق عاطف، ثوب حسام إبن الرجل الثرى،إنه ثوب المال،بل وسيكون ثوبى حينئذ أفضل من ثوب حسام بكثير لأنى سأكون بذلك قد

جمعت بين المال ومميزات أخرى كثيرة،ولكن مايهمهم فقط هو المال،فهو وحده مقصدهم الوحيد ومبتغاهم الذى ينشدونه وفى سبيله يمكنهم أن يفعلوا أى شئ،وعلى قدر إدراكى بهذه الحقيقة أو بمعنى أصح على قدر يقينى التام بحقيقتهم المادية فإنى أدرك أيضا"تماما"أنها تحبنى وترغبنى كما أحبها وأرغبها ولكن ماذا عساى أن أفعل لها ولهم؟وماذا يمكننى أن أحقق لهم؟كما لاأستطيع أن أتقدم لخطبتها وأنا مازلت طالبا" لم يعد يتبقى على تخرجى سوى أيام،وكذلك لاأستطيع أن أفعل ذلك وأنا على هذه الحال لاأملك شيئا"برغم أننا أهل قرباء وبرغم أنها إبنة عمى وأنا إبن عمها،ولاأستطيع أن أرهق والدى وأطلب شيئا" كذلك فيكفى أنه ربانى وعلمنى،وهذا لأنى أولا"أحب أن أفعل كل شئ بكامل إرادتى وإمكانياتى الخاصة حينما أستطيع أن أفعل،وثانيا"لأننا أناس بسطاء واقعيون علمتنا الأيام أن على

الإنسان ألايحلم كثيرا"وألايكون خياليا"وألايطلب فقط سوى مايستطيع الحصول عليه على قدرظروفه وإمكانياته،ناهيكم عن المظاهر الخادعة التى ذكرتها فى قصتى والتى قد توحى إليكم بأننا من الأثرياءكسيارة والدى مثلا"،فلقد إشتراها بعد سنين طويلة من الكفاح والجهد لتعيننا على سهولة التنقل ولتريحنا من عناء المواصلات،كما أن والدى لايستطيع أن يمد لى يد المساعدة فى شئ كما تتصورون!فمافائدة أن يكون مديرا" ذا مركز مرموق ومكانة ممتازة ومرتبه يكفي بالكاد أن نأكل فقط ولكنه رغم ذلك لم يقصر فى شئ وذلك يكون على حساب نفسه حتى أصبحنا على مشارف التخرج،وحتى إذا كان والدى ثريا" ويستطيع أن يزوجنى ممن أحب كوالد حسام مثلا"،فإننى لاأقبل لأن كبريائى يأبى عليَّ ذلك وكما قلت آنفا" لأنى أحب أن أفعل كل شئ بكامل إرادتى وإمكانياتى الخاصة حين تسمح

الظروف وتسهل لى الأقدار ذلك إن شاءت،كما أننى لست كحسام هذا من الشباب المستهترين من أبناء الأثرياء الذين يعتمدون على آبائهم فى كل شئ،ولاأحب أن يكون والدى فى ثراء والده حتى يستطيع أن يزوجنى مثله،فالمال بالنسبة لى ليس إلاكوسيلة للحياة وليس هدفا"فى حد ذاته،ولاأطمع أيضا"أن أكون ثريا"فى يوم من الأيام ولاأحب أن أكون كحسام هذا الرقيع المدلل الفاشل،ولماذا يتعجلون الثراء والمال وكل شئ فى هذه الدنيا يسير وفق مقادير محددة لكل إنسان،فإن كان قد قدر لى أن أكون ثريا"فلابأس وإن لم يكن مقدرا"لى ذلك فلن أكون رغم أنفى ولاضير.

وبعد إستغراقى فى التفكير بهذه الطريقة حتى إستطعت أن أحلل كل كلمة قالها عمى فأدركت شيئا"هاما"،وهو أننى إذا لم أستطع أن أحقق لهم مايصبون إليه ففى هذه الحالة لن تكون

هدى لى ولن أكون لها،قد تقولون أننا أهل وإخوة ولكن رغم ذلك فإنهم لن يتركونا نخطط لمستقبلنا ونحيا حياتنا كما نريد نحن لا كما يريدون هم،لأنى أعلم أنهم طامعون وماديون جدا" وأعلم أيضا"أن عمى لن يتنازل ولن يتخلى عما يدور بعقله ويفكر فيه.

إضافة إلى ذلك فإنى أعلم تماما"أن هدى ذات شخصية ضعيفة أيضا"ولاحول لها ولاقوة ولن تستطيع أن تثبُت على رأيها لتصمد فى مواجهتهم فى سبيل الحفاظ على حبنا،وإذا كانت هدى قد إفتعلت حبها لى أو أنه كان مدبرا"بإتفاقهم معها على ذلك،وهى بالطبع تعلم مايريدون وعليها أن تنفذ مايطلب منها بكل دقة،وربما هى تحبنى حقا"أو أن سبب حبها لى هو أنى أكتب لها الشعر،أو لأنها تريدنى أن أحقق لأسرتها أطماعهم التى يتطلعون إليها،فإذا كان كذلك فهى إذن لاتستحق حبى

لها،برغم أنى بينى وبين نفسى أوقن تماما"أنها تحبنى لذاتى ولذاتى فقط،فلايمكن أبدا"أن تكون هدى قد إفتعلت أو إصطنعت حبها لى.

لقد كنت صريحا"جادا"حذرا"حين حديثى مع عمى،بل وأفهمته بأسلوب غير مباشر أنى لاأطمع فيما يطمع هم فيه، وأنى لاأريد مايريدون وأنه لن أستطيع أن أحقق لهم أحلامهم، ولهم الحق أن يحلموا كما يريدون وأن يطمعوا كما يشاءون، فهى إبنتهم الوحيدة ويريدون أن يطمئنوا على مستقبلها وحياتها،وأن يأمنوا عليها مع زوجها الذى يحلمون هم به،ولى أنا أيضا"الحق أن أرفض كل مايريدون وأن أرفض أيضا"أن أكون فى صورة أى إنسان آخر غيرى،كما أرفض أن أرتدى ثوب أحد سوى ثوبى،فهم يريدوننى إنسانا"خارقا"أصنع لهم المعجزات وأبنى لهم المستحيل فى زمن صعب كهذا الزمن وفى

ظروف كهذى الظروف،ولوكانوا يريدوننى حقا"لذاتى لرفضوا حسام هذا وماتركوه معلقا"حتى يختبروننى إن كنت سأحقق لهم مايصبون إليه أم لا؟!علما"أننى لاأحب أن يختار لى أحد طريقا"أسير فيه أو إتجاها"أهتديه،لأنى أريد أن أحيا حياتى كما أريدها أنا لاكما يريدها غيرى،ولو كان عمى يريدنى دون غيرى ولذاتى لقالها لى صراحة،فهل كنت سأرفض ذلك مهما كانت الأسباب؟!وهل ذلك ينقص كرامته لكيلا يفعل؟

كلا والله!

نعم أرفض أن أرتدى ثوب أحد سوى ثوبى وأرفض أن أكون فى موقف إختبار أو وضع مقارنة وإختيار،ولهذا صممت بينى وبين نفسى ألاأذهب إليهم على الإطلاق إلاحينما أكون قادرا"على طلب يدها للزواج،وأن أهتم بدراستى حتى أنتهى تماما"منها ثم يكون بعد ذلك مايكون،وماكدت أترك هذه

الأفكار وأستجمع شتات فكرى وألقى بهمومى فى جعبة
النسيان،حتى عاد رنين الهوى فى تمام الساعة الخامسة والثلث فى
مساء يوم الثلاثاء السادس عشر من أبريل،وفى هذه المرة التى
أتى فيها النداء وبكل لهفة وبلا أى إرادة منى هرعت إلى الهاتف
وطلبت الرقم،ومالبث أن دق جرس تليفونهم دقتين متتاليتين فقط
فإذا بى أضع السماعة وأقطع الإتصال.

الفصل التاسع

الطريق إلى الخلاص

(٩)

عاد رنين الهوى بكثرته وشدته ولكن لم تكن له لذته ونشوته الأولى،فَقْد فَقَدَ رونقه وبراعته وذهب عنه بريقه وروعته ووداعته،وبدأت أحس بشئ من الجفاء والإشمئزاز،وبقدر تزاحم الأفكار والكلمات فى عقلى بقدر ماهدأت العاطفة ولانت وتعسف القلب فبرد وإستكان وإستراح من لهفته وحنينه وشوقه ولهيبه،ولكن إلى متى سيستمر هذا الرنين؟وإلى أى مصير سيودى بنا هذا النداء؟

ظللت حائرا"أفكر فيما يمكن أن أفعله وتراءت لى فكرة أن أوضح لهدى كل مايدور بعقلى،وأخذت أدقق فى هذا الأمر وأمعن فيه التفكير،فتارة أجد نفسى رافضا"لذلك وأخرى أكون مقتنعا"به،ولمالا؟فربما حين أشرح لها وجهة نظرى حيال أفكارهم نجد الطريق الذى يخلصنا من هذا الحنين وهذا النداء، وأجد أنا أيضا"ضالتى المنشودة فى الخلاص والراحة من هذا

العذاب أو هذا الجحيم،وأخذت أفكر أأحدثها فى الهاتف
وأشرح لها كل شئ؟أم أتركها تناديني ولاأسعى إليها أم ماذا
أفعل؟ولكن هل يعقل أن أتركها تناديني فلاأسعى إليها؟!
إذن لابد...لابد أن أواجهها وحينئذ سأعرف منها مدى
تمسكها بي وثبوتها على العهد معى،وأثناء ذلك لاح بعقلى
خاطر أن أذهب إلى كليتها وأجابهها بكل مايدور بذهني فربما
لانجد الوقت الكافى الذى يمكننا أن نتحدث فيه بالهاتف،كما
أنني حينما أقابلها سأكون على راحتي وفى هذه الحالة
سأستطيع أن أوضح لها كل شئ على مهل بدلا"من التسرع
فى الحديث بالهاتف،كما يمكنني أن أستشف من قسمات
وجهها وتعبيراته صدق مشاعرها وإحساساتها نحوى،وفى صباح
يوم الخميس الثامن عشر من أبريل، لم أذهب إلى الكلية كعادتي
وذهبت إلى كلية التربية بالجامعة وكنت هناك فى تمام الساعة

العاشرة صباحا"فتوجهت إلى لوحة الإعلانات بمدرج السنة الأولى،لأطلع على برامج الدراسة اليومية فأعرف هل ستكون موجودة بالكلية اليوم لحضور محاضراتها أم ليس لديهم محاضرات اليوم؟ففوجئت أن جداول إمتحانات آخر العام معلنة وعلمت أنها ستنتهى من إمتحاناتها فى اليوم الثانى من يونيو، وأثناء وقوفى وإطلاعى على اللوحة مرت بجانبى إحدى الطالبات ويبدو عليها أنها كانت ستصعد السلم المؤدى إلى مدرج محاضرات السنة الأولى،فإلتفت وناديت عليها وسألتها إن كانت تدرس بالسنة الأولى أم لا؟فأجابتنى بالإيجاب فسألتها هل تعرفين طالبة تدعى هدى جلال عبد الله فأجابت بالإيجاب أيضا"،فطلبت منها إذا وجدتها بالمدرج أن تدعوها لمقابلتى وإنتظرتها لدقائق فعادت وأبلغتنى أنها لم تحضر اليوم فشكرتها، ثم إنتظرت قليلا"وقلت لنفسى ربما لاتعرفها أو لم ترها

فصعدت إلى المدرج وألقيت نظرة على الطلبة والطالبات الموجودين فلم أجدها،فعدت أدراجى خارج الكلية وذهبت إلى كليتى فقد كنت على ميعاد فى الساعة الثانية عشرة ظهرا" مع الأستاذ المشرف على البحث،ولكنى لم أجده فإنتظرته حتى الساعة الثانية دون حضوره ومقابلته فقررت العودة إلى المنزل وأخذت أفكر ماذا أفعل؟ولماحالت الأقدار دون لقائنا؟اورغم حيرتى فى هذا الأمر إلاأننى بينى وبين نفسى حمدت الأقدار أنى لم أعثر عليها و لم أقابلها،فربما يكون لحديثى معها وقعا"مؤثرا" عليها يزيدها تعلقا"بى،ولكن لابد من التفكير والبحث عن طريقة أخرى ولامفر من إيجاد اسلوب آخر أستطيع أن أفهمها به مايدور بخلدى بطريقة غير مباشرة ولكن كيف؟!!!وبعد وصولى إلى البيت وتناول الغداء جلست فى غرفتى ومن عاداتى أن أتصفح الجرائد فأطلع على مافيها من أخبار بطريقة سريعة

ومختصرة قبل أن أبدأ فى المذاكرة،فقرأت إعلانا"بجريدة الأهرام
عن بيع إستمارات لتمليك الأراضى الزراعية للشباب
والخريجين بأرض المعارض بمدينة نصر،فصممت على الذهاب
لشراء تلك الإستمارات وبالفعل فى صباح يوم السبت
العشرون من أبريل لم أذهب إلى كليتى وتوجهت إلى أرض
المعارض بمدينة نصر،فإشتريت الإستمارات وقرأت البنود
الموجودة بها ثم كتبت البيانات،وقررت أن أتقدم بها إلى الجهة
المختصة بوزارة الزراعة هذا إذا صدق عاطف فى حديثه معى،
ثم عدت إلى الكلية وبعد إنتهاء اليوم الدراسى وعدت إلى
المنزل أخذت قسطا"من الراحة،وسعيت إلى الهاتف لأطلب
بيت عمى وبعد أن إنتهيت من طلب الرقم،دق جرس الهاتف
فرفعت السماعة فجاءنى صوت زوجة عمى:
آلو.

مساء الخير.

أهلا"ياأحمد كيف حالكم؟

بخير والحمد لله وكيف حال عمى؟

الحمد لله.

هل عاطف موجود.أريد أن أتحدث إليه؟

نعم موجود سأناديه ليحدثك.

وبعد قليل.حدثنى عاطف:

أهلا"ياأحمد كيف حالك؟وماذا عن أخبارك؟الحمد لله.هل

تذكر حديثك معى بخصوص مشروع الأرض الزراعية؟

فسكت برهة ثم قال لى:

أعتقد أننى حدثتك فى أمر كهذا.

ولكن لماذا تحدثنى عن ذلك الآن؟

لقد قال لى أحد الزملاء بالكلية أن هناك إعلانا"فى الصفحة

التاسعة بجريدة الأهرام ليوم الخميس الماضى وهى جريدتكم المفضلة،وهذا الإعلان دعوة إلى الشباب والخريجين لتملك قطع من الأراضى المخصصة للزراعة،وسيتم بيع الإستمارات بأرض المعارض بمدينة نصر،مع العلم أن مساحة كل قطعة تسعة عشر فدانا"بها منزلا"مجهزا"،بالإضافة إلى بعض الشئون الزراعية الأخرى التي يتم تسليمها للمالك وتعطى له مهلة لمدة خمس سنوات،ثم يبدأ بعدها فى تسديد ثمنها بالتقسيط على ثلاثين عاما"،على أن يدفع تسعمئة جنيه كمقدم وبعدها تسلم له الأرض فمارأيك؟

لقد قلت لك أنني سأشاركك فى هذا المشروع من قبل.

إذن إبحث عن الجريدة وإقرأ الإعلان ثم إتصل بي فى أقرب فرصة وقل لى مارأيك النهائي حتى أذهب لشراء إستمارات التملك.

إشتريها أولا"وتقدم بها وحين تحصل عليها سنبدأ فى العمل سويا".

لابأس ولكنى سأنتظرك حتى تتصل بى وتحدثنى فإلى لقاء.

لم يكن عاطف جادا"أوصادقا"فى حديثه معى،لأن طريقة حديثه ونبرات صوته كانت توحى بذلك،ولأن الإنسان حينما يكون قد قال شيئا"ما ثم تفاجئه بالحديث فيه بعد فترة مهما طالت،فإنه إذا كان صادقا"فى حديثه ومتحمسا"لماقاله فإنه حين مفاجأته به مرة ثانية يكون حماسه وصدقه بنفس الدرجة التى تحدث بها فى المرة الأولى،وعاطف لم يكن جادا"أوصادقا" أومتحمسا"كما كان فى المرة الأولى،ولمست ذلك وأدركته لأنه كان مرتبكا"وليس طبيعيا"كما أنه لم يحاول أن يتصل بى ليحدثنى،وكان هذا أكبر دليل على نفاقه وكذبه ولم يكن توقع هذا الأمر مفاجأة بالنسبة لى،لأنهم جُبِلوا على حب المال

وطُبِّعُوا على الكذب والخداع والنفاق فحذقوا وبرعوا فى تمثيله
بكل مهارة،وإذا كان عاطف يعتقد أنه حاد الذكاء فهل يعتقد
أيضا"أننى شديد الغباء للدرجة التى تجعلنى أصدق أنه لن يسعى
وراء العمل فى المحاماة ليعمل معى فى الأرض!
وظللت فى حيرة أفكر فيما يمكن أن أفعله حتى مساء اليوم
التالى الأحد الحادى والعشرين من أبريل،فقد وقع فى يدى
ضالتى المنشودة التى أخرجتنى مماأفكر فيه بعض الشئ،أو لعلها
العِلَّة التى قادتنى وعرفتنى على الطريق إلى الخلاص أوهكذا خيل
إلىّ،أتعلمون ماذا حدث؟حدث أننى خرجت من غرفتى
وذهبت إلى غرفة المكتب وبها مكتبة كبيرة تتراص عليها كتبنا
ومراجعنا أنا وأخى وسام،وأثناء بحثى عن أحد الكتب ظهر
أمامى أجندة محاضرات جديدة لأخى وسام يبدو عليها أنها لم
تستعمل من قبل فجذبت إنتباهي،وبعد أن فتحت الغلاف

وجدت مكتوبا"عليها أعلى صفحتها الأولى عنوان"مذكرات حياتى"فأغلقتها لأنه لايصح ألاأطلع على مافيها،ولكن شيئا" ماداخلى جعلنى أحاول وأقبل على الإطلاع عليها ففتحتها ثانية،ومررت بين أوراقها فوجدتها بيضاء خالية إلامن ورقة منثنية بين صفحاتها فتركتها ووضعتها مكانها مرة ثانية، ولكن لاح لى خاطر أنه ربما أقرأ فى هذه الورقة مايدلنى على حقيقة مايدور بعقلى وصدق مشاعرى ومعتقداتى،فعدت لأخذ النوتة مرة أخرى وفتحت الورقة التى بها فإذا بى أفاجأ بهذه الكلمات فقرأتها:"حبيبى...ماهذا الذى ينتابنى كلما وقع نظرى عليك؟...لست أدرى ماذا يحدث لى...وللوجوه من حولى وللدنيا بأثرها...كل شئ يختفى...يتلاشى ويبقى وجهك الجميل يتألق كالقمر فى ليلة صافية...وأبقى وحدى ...يضنينى الفكر...ويختفى سؤالى حتى يكاد يقتلنى...وتجتمع

كل جوارحى تبحث عن إجابة...ولكن...أين؟!أفى بحار

بلاشطآن يُبْحث عن ملاذ؟!أفى عينيك أبحث عن تلك

الإجابة؟!أفى هاتين الحائرتين أجد بغيتى؟!...أنّى ذلك؟وأنا

لاأكاد ألتقى بهما...حتى تهربان...وأهرب أنا أيضا"منهما...

وتخوننى النظرة...مجرد النظرة فأنّى للكلمة أن تنطلق...أحيانا"

أشعر أنهما تدعوانى كى أبثهما شوقى...كى أحدثهما عما

يختلج فى صدرى وأحيانا"أخرى تهربان...تتواريان وراء تلك

الدعابات الرقيقة التى لاأعرف لها هوية...وينتهى اللقاء...فجأة

...وكمابدأ...بدون ميعاد...لكم وددت لو تستطيع يدى أن

تعبر ليدك عمابداخلى...لكم وددت لو يمتد سلامنا إلى

مالانهاية...لوأظل محتويا"يدك بين يَدّىَ لعلها تكون أكثر منى

جرأة...وتذهبين...وأعود كما كنت...أداوى أشواقى الجريحة

...وأروى بالأمل كلماتى الذابلة...إستعدادا"للقاء جديد...من

صنع القدر!!!".

إنتهيت من قراءة هذه الكلمات عدة مرات وحقيقة لقد فوجئت بوجود مثل هذه الكلمات،ولكنى لم أفاجأ و لم أذهل بل وكنت دائما"أتوقع وأخمن وكان إحساسى دائما"يصدقنى بأن أخى وسام ربما يحب هدى،وهاهى الحقيقة الآن وقد وقعت بين يدَّىَ وأصبحت شيئا"ماديا"ملموسا"،الحقيقة التى طالما بحثت عنها والتى كنت أحياها وأشعر وأحس بها داخل كيانى،تلك الحقيقة وكل الحقائق التى أدركتها ووصلت إليها وعلمت بكل جوانبها بعد تفكير مضنى دقيق،رغم أن كل ما فى هذه الدنيا من حقائق زيف ورياء،نعم هى الحقيقة...
والحقيقة هى أن أخى وسام يحب هدى،والحقيقة دائما"جميلة مهما كانت مؤلمة أومحزنة لأنها تكون حقيقة،ولأنها حقيقة فهى جميلة ولابد أنه يخصها بهذا الحديث،وهى مرحة ولابد أن هذه

الدعابات التي يصفها بأنها دعابات رقيقة،لابد أنها تصدر منها
لأنها كثيرة المزاح،ولكن الشئ الذى لايعلمه أخى وسام هو أن
هدى لاتبادله مشاعره وأحاسيسه،لأنها تحبنى بل وتحبنى بكل
صدق وحرارة وإخلاص ولايمكنها أن تجرؤ على مشاغلة أخى
وسام أو إيهامه بأنها تحبه وهى تحب أخاه،كما لايمكنها أن
تجرؤ على فعل ذلك ولايمكن أن يصل عقلها إلى التفكير فى
ذلك ولكنه لحبه لها خُيِلَ إليه أنها ربما تحبه،كما أن وصفه
للقائهما بهذه الطريقة يعنى أن التي يكتب عنهاويتحدث إليها
ويمزح معها دون تكلف أو تصنع لابد أنه يعرفها جيدا"ويكون
على صلة وثيقة بها،إذن فلابد أن تكون هى هدى،ثم من تلك
التي ينتهى لقائه بها "فجأة وكما بدأ دون ميعاد" ومن تلك؟!
التي يعود كما هو "يداوى أشواقه الجريحة.ويروى بالأمل
كلماته الذابلة إستعدادا"للقاء جديد من صنع القدر!"أليست

هى هدى؟!نعم هى وبكل تأكيد وتيقن لأنه لايمكن أن تكون
التى يكتب عنها إحدى زميلاته بالكلية،وإلالرآها كل يوم
ولايصبح فى حاجة أن يستعد للقاء جديد،أو أن ينتظر
لقاء"جديدا"من صنع القدر!!!.

ويالسخرية القدر وإستهزائه بنا حين يجعل شقيقين يحبان إبنة
عمهما؟أليس فى ذلك؟سخرية وإستهزاء بالإنسان الذى كرمه
الله فجعله أفضل مخلوقاته،لالا.لابد أننى واهم فيما أفكر فيه
كما هو واهم فى حبه لها،إن كان خاننى إحساسى وكذبتنى
مشاعرى فى حبه لها،ولكن حقيقة الحقيقة هى لابد أن تكون
عند أخى وسام،فلما؟لاألجأ إليه وأحدثه بكل صراحة عما
يدور بخلدى.أجل لابد أن أحدثه فى هذا الأمر،ولكننى ظللت
حائرا"ففى هذه الأيام كلانا يستعد لإمتحان آخر العام،وكلما
ذهبت إلى غرفة المكتب التى يستذكر فيها وكلما هممت

بالحديث إليه أجد نفسى أتراجع مرة أخرى لأنى لمست أنه عصبى المزاج بعض الشئ،فآثرت أن أتحين فرصة لأتحدث إليه ومواجهته بماأفكر فيه.

وفى مساء اليوم التالى ذهبت إليه فى غرفته فوقفت برهة أمام المكتب فوجدته منهمكا"فى المذاكرة فسألته:

كيف حالك؟بالكلية وهل إنتهيت من تحصيل المعلومات أم لا؟

الحمدلله وسأنتهى من المراجعة قريبا".

هل يمكننى أن آخذ من وقتك بعض الشئ لأحدثك فى أمر هام؟

تفضل.ماذا يشغلك؟

مارأيك فى هدى إبنة عمنا جلال؟

من آية ناحية؟

من ناحية إختيارها كزوجة.

أنت تعلم جيدا"كيف نشأت هدى!وكيف علمها عمك ورباها أفضل تربية!وهذا وحده كفيل بأن يجعلها زوجة مطيعة تعرف تماما"كيف تسعد زوجها بأن تحفظه وترعاه،أفهم من ذلك أنك تحبها وفكرت فى إختيارها زوجة لك.

ولما هذا السؤال؟

لأنه بصراحة ينادينى إحساس داخلى بأنك تحب هدى وأريد أن أتأكد من صدق إحساسى نحو ذلك فقل لى بصدق هل هذا صحيح؟

أقسم لك أنى لم أفكر بهذه الطريقة لكنى حينما فكرت فيها كزوجة كان لأجل ماقلته ووضحته لك عن نشأتها وتربيتها وكيف يكون زوجها سعيدا"معها.

أفهم من ذلك أنك تحبها.

قلت لك أننى لم أفكر بهذه الطريقة.ثم لماذا تسألنى كل هذه

الأسئلة؟ولما يشغلك هذا الأمر الآن فمازال هناك عدة سنوات
حتى يمكنك الزواج؟
إن هناك إتفاقا"وعهدا"بيننا أنا وهدى على الزواج ولكنى
خائف بسبب تشجيعهم وإختيارهم لى.
ربما كنت مطمعا"بالنسبة لهم فتقدم على بركة الله.
يُهَيأ إِلىَّ أنهم واهمون فيما يتطلعون إليه ويطمعون فيه.
على وجه العموم.أو على أية حال الإنسان بذاته ليس بمايملكه
ولكن بمايمكن أن يفعله وأن يكونه.
طاب مساؤك.
قل لى ماذا تنوى أن تفعل؟
سأحطم قلبها.
حرام عليك.لاتفعل ذلك.
لاتشغل بالك بهذا الأمر.

ثم تركت أخى وسام وعدت أدراجى إلى غرفتى وأخذت
أفكر،فقد كان لحديثى معه وقع غريب على عقلى وطريقة
تفكيرى فقد تغيرت مفاهيم أخرى كثيرة بالنسبة لى،فليست
المشكلة إذن هى أخى وسام سواء أكان يحبها أو لايحبها،ولقد
كنت واهما"إزاء التفكير فى هذا الأمر فليست هدى إذن هى
التى يعبر عن حبه لها فى مذكراته،ثم أن أخى وسام مثلى لن
يستطيع أن يحقق لهم مايتمنون ولوإستطاع وأمكنه ذلك!فهل
يكفون عن مطالبهم وأطماعهم؟إن مايهمهم هو المال فقط...
أجل إن المشكلة الحقيقية هى الطمع والمال،كما أنه ليس هناك
شيئا"إسمه الحب...إنه وهم وخيال نصنعه بأنفسنا،فليس يوجد
مايسمى بالحب بين شاب و فتاة أو بين رجل وإمرأة...أجل
إن هذا الحب ماهو إلا وهم وسراب،وحقيقة العلاقة بين
الرجل والمرأة هى المال والزواج،فبالمال فقط يمكن للرجل أن

يحصل على المرأة فيصل إليها ويتزوجها،نعم الحقيقة فقط هى المال والزواج فلايوجد شيئا"إسمه الحب أو لايوجد فى هذه الدنيا مايسمى بالحب،فلو كان يوجد فى هذه الدنيا مايسمى بالحب حقا"لرفضوا حسام هذا وإختارونى لذاتى،أجل لوكان يوجد مايسمى بالحب حقا"،لرفضوا حسام إبن الرجل الثرى وماتركوه منتظرا"حتى يختبرونى إن كنت سأحقق لهم مايتطلعون إليه ومايطمعون فيه أم لا،لوكان يوجد مايسمى بالحب حقا"لإختارونى لذاتى ولم يضعونى فى موقف إختبار أو وضع مقارنة أو إختيار كهذا لديهم حتى يتيقنوا إن كنت سأحقق لهم مايصبون إليه أم لا،وأنا أرفض ذلك بكل صراحة ولاأقبله بكل شدة ومهما كانت الأسباب،إذن لابد أن ألقى بهذا الحمل الثقيل عن أكتافى ولأضحى من أجل هدى فقط فأحطم قلبها بطريقة تجعلها تكرهنى وتمقتنى فتنتزعنى من عقلها

وقلبها.

وظللت على هذه الحال أفكر بهذه الطريقة حتى إقتنعت تماما" بهذه الفكرة وهذا هو الحل الوحيد لطريق الخلاص،أجل لابد أن أفعل شيئا"لجرح كرامتها وكبريائها فتكرهني،ولكن مايؤرقني فقط هو أنني أخاف أن أكون بذلك أظلمها معهم بلاذنب أو جريرة إذا كان إتفاقهم فيما بينهم كان بسبب طمعهم فقط،لأني أعلم تماما"أن هدى تحبني غاية الحب بكل صدق وإخلاص،ولكن ماذا أفعل أنا أيضا"وهذا هو الحل الوحيد.

نعم هذا هو الحل الوحيد للوصول إلى طريق الخلاص،ولابد أن أضحي من أجلها هي فقط فهي جديرة بهذه التضحية،والطريقة الوحيدة هي أن أحطم قلبها وأجرح كرامتها وكبريائها بأسلوب يجعلها تكرهني وتمقتني فتنتزعني من عقلها وقلبها،رغم

أنى أعلم أن الذى يحب لايعرف الكراهية،أجل سأحطم قلبها مادمت أحبها ولاأستطيع أن أترجم هذا الحب أو أعبر عنه بطريقة مباشرة أو بطريقة مادية ملموسة،وربما تتساءلون!هل فى الحب كرامة وتضحية؟...بلى ففى الحب كرامة وتضحية لأن الحب الحقيقى كلمة جامعة لكل الصفات النبيلة والمشاعر الإنسانية السامية،إذن لابد أن أحطم قلبها وأجرح كرامتها وكبريائها بأسلوب غير مباشر ولكن بطريقة قاسية بعض الشئ فهذا هو الحل الوحيد للطريق إلى الخلاص.

الفصل العاشر

بداية الإنحدار

(١٠)

إستمر رنين الهوى بين الحين والحين...ولكن لم تعد له لذته
ونشوته الأولى،فأصبح لايطربني ولاينشيني ولكنه صار يعذبني
ويؤلمني ويشجيني،وماذا عساى أن أفعل؟وقد فقدت الأشواق
لذهما وخبا الأمل بين أحلام واهية ضائعة وأطماع ليس لها
حدود،وماذا أفعل؟وقد صممت بيني وبين نفسي أن أضحى
من أجل هدى فقط،فأحاول أن أحطم قلبها فينالون هم مأربهم
وأصل أنا إلى مرادى بأن يبحثوا فيحصلوا على مايطمعون فيه
بعيدا"عن طريقى وبالطريقة التي تروق لهم،فبذلك أريح
وأستريح.ولكن هل يستطيع أن يتحمل القلب؟وهل يهون على
القلب أن تمس حبيبته بسوء؟لالا.لاوالله لايهون ولايمكنه أن
يتحمل صدمة قلب الحبيبة،ولكن.ماذا يمكنه أن يفعل؟والأقدار
تحول بينه وبين مايريد ويتمنى،ليته لم يحب حبا"حقيقيا"صادقا".
وليته لم يكن نبيلا"إلى هذا الحد وإلى هذه الدرجة،وياهوله

وروعه وإلتياعه من قسوة وصعوبة ماسيقابله به الناس وماتخبئه له الأقدار،ولكنه إستمد من حبه وصدقه ونبله صرامة وصلابة على تحمل الأنواء والمصاعب،فرحت أستمد من صرامته وصلابته قوة وصبرا" أهيئ بهما نفسى على تحمل ما لاتحمد عقباه،وأخذت أفكر فيما يمكن أن أفعله وبأى طريقة يمكننى أن أنفذ ماصممت عليه حتى إهتديت إليه فى صباح يوم الأربعاء الرابع والعشرين من شهر أبريل سنة ألف وتسعمئة وخمس وثمانين،وبعد أن أمعنت التفكير وجدت أن أفضل الطرق هى أن أحاول تخويفها كأن أدعوها لمقابلتى بطريقة سخيفة مقززة توحى بأن شيئا"ما لابد سيحدث وأن الأداة الوحيدة لتحقيق ذلك هى الهاتف،وليكن بعد ذلك مايكون وليحدث مايحدث فمادمت نقيا" ومادام ماسأفعله لغرض وهدف نبيل،فحينئذ لايهمنى عمى أو غيره أو أى شخص مهما كان وبالفعل

قررت أن أفعل ذلك،وأذكر أنه قبل إستيقاظى من النوم صباح
هذا اليوم أننى كنت أحلم أننى أمسك بسماعة الهاتف وكأنها
تجذب منى بشدة وكأن الهاتف يطير إلى أعلى فى إتجاه السماء
فإستعذت بالله ودعوته أن يكون خيرا"،وبعد إنتهاء اليوم
الدراسى وعودتى من الكلية إلى المنزل فى الساعة الثانية والثلث
ظهرا" لم أجد والدتى وأختى مها،فعلمت من أخى وسام أنهما
قد صعدتا إلى أعلى البيت لقضاء بعض الشئون المنزلية،ولايزال
أبى لم يحضر بعد من العمل،وكان أخى وسام يستمع إلى
إحدى الأغنيات وكان صوت جهاز التسجيل مرتفعا"جدا"،
فرجوته أن يوقف الجهاز أو يأخذه إلى إحدى الغرف ويتركنى
وحدى فلم يفعل فنهرته بشدة ففعل،ونظرت إلى ساعة الحائط
فوجدتها تقترب من الثانية والنصف وخمس دقائق،فرفعت
سماعة التليفون وأدرت القرص لأطلب بيت عمى ومأأن

إنتهيت من طلب الرقم حتى جاءني صوت هدى:

آلو.

مساء الخير ياهدى.أناأحمد

ترد مداعبة : وماذا يعنى؟!

أجبت بسرعة وبشدة : وماذا يعنى؟إسمعى لقد ذهبت إلى كليتك اليوم و لم أجدك وأريد مقابلتك الآن.

أجابت بهدوء : ياأحمد أنت عاقل.تعالى إلى هنا وقل لى ماتريد.

أجبت بشدة أكثر حدة : أنا لست جبانا".طول عمرى عاقل.

أريد مقابلتك الآن لأقول لك شيئا"مابطريقة معينة!!!.

فنهرتنى بصوت عال وقالت : إسكت ولاتعيد الإتصال مرة أخرى.

ثم وضعت السماعة بعنف وأدرت القرص لأعيد الإتصال

فردت زوجة عمى :

آلو.

أنا أحمد.أين هدى؟

أحمد منْ؟

فأجبت بصوت عال : أحمد أمين عبد الله.هل أنتم خائفون منى أم ماذا؟

فقالت بتسلط : نحن لانخاف أحدا"قط.أين ماما؟دعها تكلمنى.

فرددت بعنف : لايوجد هنا أحدٌ سواى.أين هدى؟دعيها تحدثنى.

فأجابتنى هدى : ماذا تريد ياأحمد؟

فقلت بصوت جهورى مخيف : أحبك!.

فسمعتها ترتعد خوفا"منى ولعلمى برقتها البالغة أدركت أنها لاتستطيع أن تتحمل حديثى إليها بهذه الطريقة فقلت لها برفق وسرعة:

دعيني أحدث أحدا"من أخويك.

فجاءني صوت عاطف : ماذا بك ياأحمد؟فنحن إخوة!

ومالذى غيرك وجعلك عصبيا"كذلك؟

فقلت بحدة : إسمع ألاتذكر الموضوع الذى حدثتنى فيه من قبل؟ فأجاب:أى موضوع؟أتعنى موضوع الأرض؟

فقلت : لالا.لاأقصد ذلك!أتذكر حديثك إلىّ حينما حضرت إليكم فى إجازة نصف العام.

فأجاب : لاأذكر شيئا"ولاأعرف ماذا تعنى بالضبط؟

فأجبته : إذن دع الأمر كله حتى نلتقى فى أقرب فرصة.

فقال : ولما لاتأتى وتقول ماتريد؟

فأجبته : سأتحين فرصة للمجيئ إليكم وربما أحضر غدا".مع السلامة.

ثم وضعت السماعة وقمت فإستبدلت ملابسى وجلست فى

غرفتى وحينئذ تيقنت أنى قد فقدت هدى إلى الأبد وأخذت
أهدئ من نفسى وأفكر فيما حدث،فوجدت أننى بتصرفى ذلك
قد أحدثت لهم بلبلة وتشتيتا"فكريا"ولايمكن أن يصل عقلهم
فيما قد سلف وفكرت فيه وعزمت عليه،وخاصة لأننى كنت
حازما"بدرجة بالغة فلقد كنت فى ثورة عارمة جعلتنى أستجمع
كل قوتى وأستشعر كل غضبى منهم وسخطى عليهم،إلاهدى
فما هى إلاضحية مثلى ولاذنب لها أو جريرة فى كل ماسبق
وحدث وماسوف يحدث من مواقف بيننا،ولكننى لفرط غضبى
ولشدة سخطى أحسست أن هناك شيئا"بداخلى كان ولابد
وأن ينفجر فيهم،تماما"كما كانت حالة الطقس تحمل إعصارا"
متربا"شديدا"أهال الكون بغبار كثيف أصبغه بلون أصفر قاتم،
وكذلك لم أكن جبانا"حتى أسلك سلوك الجبن كما يمكن أن
يتبادر إلى أذهانهم!!!،ولكن للأسف لم يكن عمى قد آب من

العمل بعد ولابد أنه سيقوم بالإتصال بى عند عودته إلى البيت
هناك وبعد أن يقصوا عليه ماحدث!!!،فماذا يمكننى أن أقول له
وكيف أحدثه؟فرغم جرأتى وصراحتى لاأستطيع أن أواجهه
بهذه الحقيقة،ففى ذلك خروج عن الأدب وتطاول عليه
لايمكننى أن أفعله أو أقدم عليه،فماذا يمكننى أن أفعل؟وكيف
يمكننى مجابهة هذا الموقف إذن؟ولأنه لابد متحدث إلىّ لمعرفة
سبب سلوكى ذاك ومحاولة تفسيره!فحينئذ لابد من مواجهة
الموقف والإستمرار فى تحقيق ماعزمت عليه من تضحية لأجل
هدى ولأجل هدى فقط،أيا كانت النتائج وأيا كانت التبعات
ولكن النتيجة الحتمية التى لامفر من حدوثها هى أن هدى لن
تكون لى،ولابد إذن أنها ستتزوج حسام صديق عاطف! فماذا
يهمنى بعد ذلك؟وماذا يمكن أن يقع من نوائب أو ويلات أشد
وأعنف من فقدانى لهدى؟،وماذا يضيرنى بعد ذلك؟وأنا أعلم

جيدا"أنها ليس لى ولكنها لحسام إبن الرجل الثرى.

ثم قمت فأغلقت باب الغرفة وإستلقيت ممددا"على فراشى حتى أستريح بعض الوقت،وماكادت عينى تغفو لبضع دقائق حتى سمعت جرس التليفون وبعد قليل جاءت والدتى لتوقظنى فقد كان المتحدث هو عمى فقالت لى :

إن عمك يسأل عليك وسألنى ماذا بك؟

فقمت وذهبت إلى الهاتف كى أحدثه : أهلا"ياعمى.

ماذا بك يابنى وماهى أخبارك فى الكلية؟وماذا فعلت فى البحث؟

لالا.لايهم كل ذلك.

قل لى ماذا بك؟وماذا تريد؟أنا أريدك.

أنا الذى أريدك.

أنا تحت أمرك ولكنى أريدك أن تكون هادئا"ومتزنا"فى

سلوكك وتصرفاتك.

مهلا" عَلَيّ ياعمى فأنت تعلم أنى لاأفهم بسرعة.

وفجأة إنفجر أولاد عمى وزوجته ضحكا" ربما سخرية منى.

إنك تفهم جيدا" ماذا أقصد؟

إننى لست عصبيا" وفى تمام إتزانى.

كل ماأريده أن تكون هادئا" وألاتشغل بالك بأى شئ سوى دراستك.

بالعكس إننى هادئ جدا".ولى عقل أستطيع أن أفعل به أكثر من شئ فى وقت واحد.

فمتى تفضل أن أجيئ إلى حضرتك؟.

فى أى وقت.

أعتقد أن غدا" سيكون أفضل.فلنتقابل فى حوالى الساعة السابعة مساء".

لامانع.سأكون فى إنتظارك.مع السلامة.

ثم وضعت السماعة وسألت عن والدى فأخبرتنى والدتى أنه لم يأت من العمل بعد،وسألتنى عما حدث بينى وبين عمى وأولاده فأفهمتها أنه ليس هناك شيئا" هاما" وألاتشغل عقلها بذلك،ولكنى حاولت أن أفهمها وألمح لها بطريقة غير مباشرة فقالت لى أن هدى مازالت صغيرة وأنها تفكر فى خطبتها لأخى وسام ولست أدرى هل كان من حسن حظى أو سوئه أن والدى لم يكن قد عاد من العمل حتى هذا الوقت،وقضيت يومى متوترا" ومفكرا" فيما يمكن أن أفعله فلم أستطع مذاكرة أى شئ و لم أنم إلا فى ساعة متأخرة جدا" من الليل بالرغم من أن حديث عمى لم يكن مفاجأة لأنى كنت متيقنا" أنه سيفعل ذلك.

وفى اليوم التالى وكان يوم الخميس الخامس والعشرين من شهر

أبريل،إهتدى تفكيرى إلى كتابة قصة قصيرة أحدث لهم بها بلبة أو تشتيتا"فكريا"كى لاأعطيهم الفرصة للتفكير فيما يدوربعقلى نحوهم،ولأثبت لهم أن ماحدث ماهو إلاهراء خارج عن إرادتى رغم أنهم يعلمون أنى جادا"،وأن أكون حازما"شديدا"فى بعض سلوكى حتى أضع حدا"لهذه المهزلة فبذلك أريح وأستريح، فشرعت فى كتابتها بدقة وإتقان ثم قمت بتنميقها ونقلها بخط واضح فى ورقة أخرى وبعد أن إنتهيت منها طويتها فى إحدى نوت محاضراتى،وجلست أنتظر مرور الوقت متوترا" مهموما" لاأستطيع أن أفعل شيئا"فقد شُلَّ عقلى عن عمل أى شئ سوى التفكير فيما حدث وفيما يمكن أن يحدث،حتى حانت الساعة الخامسة والنصف فإرتديت ملابسى وأخذت نوتة محاضراتى بعد أن أخرجت منها الورقة ووضعتها فى جيبى حتى لاتقع سهوا"،ثم إستأذنت والدى للخروج فسألنى إلى أين سأذهب؟

فقلت له لمذاكرة إحدى المحاضرات مع أحد زملائى فسمح لى
وطلب منى ألا أتأخر،ثم خرجت من البيت فى مدينتنا الصغيرة
لأذهب لبيت عمى بالقاهرة،فكنت أقف أمام الباب وأدق
الجرس فى السابعة تماما"،وبعد ثوانى إستقبلنى عادل مرحبا"
وأدخلنى إلى صالة الشقة حيث يوجد بها الأنتريه،فوجدت
زوجة عمى جالسة فسلمت عليها وجلست على المقعد المواجه
للصالة الداخلية،وسألت عادل عن عمى فأخبرنى أنه نائم
فأمرته زوجة عمى أن يوقظه،وبعد قليل حضر مرحبا" فسلمت
عليه وسألنى عن أسرتى ثم قال لى:

هيه.قل لى ماذا بك؟وماذا تريد؟

ألاتحتسى فنجانا" من الشاى أولا" أم تحب أن تستمع إِلىّ.

لابأس لننتظر الشاي ولنتحدث على مهل.

ولكن أين عاطف؟

فقالت زوجة عمى : إنه ذهب للمذاكرة مع أحد أصدقائه بالكلية.

ثم واصلت حديثى وقلت : إن ماأريد أن أقوله سأقرأه عليكم من هذه الورقة.

تفضل.

وبعد قليل حضر عادل بالصينية عليها فناجين الشاى فجلس معنا ثم أشعل عمى سيجارة وقال لى :

هيا تفضل وأسمعنا ماتريد.

إنها قصة قصيرة ستوضح لكم كل ماحدث ولكم الحكم فى النهاية.

فبدأت ببسم الله وشرعت فى القراءة.

"إنه فى ساعة من ساعات نهار يوم الأربعاء الرابع والعشرين من أبريل يذهب إلى المكان الذى إعتاد الجلوس فيه للشروع فى

الكتابة والتفكير،فهما بالنسبة إليه شيئين لايمكنه الإستغناء عنهما أبدا"،وبين الحين والحين يتأمل مافى الكون من مظاهره الطبيعية الخلابة لأنه يستمد منها إلهاما"عجيبا" لم يعهده فى غيرها،فالفكر بالنسبة إليه ينقسم إلى قسمين هما فكر قديم أى ذكر قديم وفكر حديث أى ذكر حديث،والفكر أى الأفكار مجتمعة هى مجموع أو مجمل الفكرين القديم والحديث،أما الذكرى أو الذاكرة فهى مجموع الذكر القديم أى الأفكار القديمة فقط،ولكن الذكر الحديث يكون وليد اللحظة كأن يكون حدثا"أو فكرا"شغل العقل منذ لحظة أو فترة وجيزة جدا"،أويكون نتيجة للتفكير فى حدث قديم أى ذكر وفكر قديم قد مضى عليه فترة طويلة من الوقت،ونتيجة لهذا فلابد للذكر القديم من ذكر حديث،أى لابد للفكر القديم من فكر حديث حتى يخرج وينطلق من دائرة الفكر وهى العقل،ولذلك

فإننا نجد أن الأفكار إذن هى التعبير الأدق والأصلح من الذكرى،وإذا ماطبقنا قانون العالم دارون وهو أن "البقاء لايكون إلاللأصلح لاللأقوى"-فمعنى ذلك أن الأفكار جسد للذكرى والذكرى روح الأفكار،فهل؟يعنى ذلك إن صح التعبير أن لكل الماديات معنويات ولكل المعنويات ماديات أى أنه لكل كيان أو جسد روح ولكل روح جسد حتى فى الكلمات،فإن صح ذلك فجسد الكلمة إذن هو اللفظ الذى يطلق على شئ يعرف به وروح الكلمة هو معناها الذى تفهم به،وأثناء تفكيره ذاك خيل إليه أنه بمجرد وصوله إلى المنزل وإتصاله ببيت عمه أن إبنة عمه هى التى ستقوم بالرد على الهاتف،فلما لايدعى أنه ذهب لمقابلتها فى الكلية فلم يجدها،ولما لايدعوها لمقابلته بطريقة مخيفة وليدرس تأثير هذا الحدث على عمه،وليجرب أن يكون ممثلا"فالناس كلهم ممثلون ولمالا؟طالما

أن كل أفراد أسرته من والديه وإخوته يحيا بمجتمعه وعالمه الخاص،فلمالا؟يجرب إذن أن يكون له مجتمعا"وعالما"خاصا"، وليكن هذا المجتمع أو هذا العالم هو مجتمع وعالم عمه،فربما يجد فيه ضالته المنشودة بأن يجد مجتمعه وعالمه المثالى الخالى من كل تخلف وزيف،إنه يريد أن يصل إلى عمه ولكن بطريقة غير مباشرة ولعلمه أن عمه هو الذى سيسعى إليه فإنه إتخذ من إبنة عمه وسيلة لتحقيق ذلك،ولكن ترى ماذا سيكون وقع هذا الحدث على عمه وأسرته؟لابد أنهم سيعتقدون وسيقولون أنه قد جُنْ حقا"ولابد أنهم سيضحكون إستهزاء"وسخرية به،أو يمكنه أن يفعل ذلك بأخته وإبنة عمه؟!ولمالا أليست هى أخته وإبنة عمه؟فلما لايجرب إذن أن يكون ممثلا"فكل الناس ممثلون، لالا.ماهذا التخريف وهذا الهزل والهراء السخيف؟!!! ولكن ترى أيمكن أن يحدث كل هذا؟وترى ماذا لوحدث هذا؟أو

يمكن أن تتغير نظرتهم فيه أم لا؟ولمالا؟إنه إن حدث هذا حقا" فإن أصح وأصدق وأبلغ عنوان لهذه القصة هو"عندما يتحقق الخيال".

وبعد أن إنتهيت من القراءة نظرت إليهم جميعا"وقلت لهم :

هيه!مارأيكم فى هذه القصة؟

فقال عمى : الله رائع!ولكن أهذا وقته؟ألم يكن من الأفضل إرجاء ذلك وتأجيله حتى الإنتهاء من الإمتحانات.ثم لما لاتقرأ على أبيك ماتريد؟

فأجبت : لاأحد يعلم شيئا".

ثم قالت زوجة عمى : ولما لاتفكر فى كتابة قصص قصيرة؟ فأسلوبك لابأس به.

فأجبت : لاوقت لذلك.

أما عادل فقال وعلامات التعجب والإستحسان على وجهه :

أريد أن أعرف من أين تأتى بهذا الكلام؟! ألاتحضر لنا نوتة الشعر التى تسجل فيها قصائدك كما وعدتنا بذلك؟

فأجبت : أنه لم يعد ينفع!!!

وكنت أقصد بذلك أن الشعر والحب لم يعد لهما قيمة فى هذا الزمن وأن المال والنفاق هما سمتى الفوز بكل مايريد الإنسان فى هذا العصر ،وأذكر أننى فكرت فى ذلك وأنا واقفا"أهيئ نفسى للخروج وحينئذ أتت هدى لتسلم عَلَيَّ وقالت لى :

يبدو أنه ليس لديك مايشغلك.

فقلت لها : وهل صَدْقتِ؟إنك ساذجة بلهاء!

هذه "كذبة أبريل".

وحينئذ إنفجر عمى وزوجته وإبنهما عادل يتصنعون الضحك فسلمت عليهم وأناِ أجاريهم فى ضحكهم،وتوجهت إلى باب الشقة ثم إلتفت وأنا أفتحه وقلتِ لهدى :

هل أنت غاضبة ياهدى؟

فقالت بصوت باكى والدموع تكاد تنهمر من عينيها :

أنا غاضبة لأجلك!!!

فتمالكت نفسى وقلت :

أنا يعجبنى ذلك!ولك أن تغضبى كماشئت!!!

وحينئذ تصنعوا الضحك بشدة مرة ثانية وأناأجاريهم أيضا" فى ضحكهم ثم ودعتهم وخرجت من الباب وكان عادل معى فودعته وقلت له :

إياك وأن تصبح مثل إبن عمك.

ثم خرجت إلى الشارع وأقسمت أن تكون هذه هى آخر مرة أذهب إلى هناك،ولكننى كنت فى حالة غريبة لاأستطيع أن أصفها لكم فتارة أكون مبتسما"أشعر بشئ من السعادة،وتارة أحس إحساسا"عميقا"أننى أريد أن أبكى وبكل حرقة،فقد كان

سبب شعورى بشئ من السعادة هو أننى إستطعت أن أنفذ ماعزمت عليه،كنت سعيدا"لأننى أضحى بحبى من أجل هدى ولأجل هدى فقط وفى نفس الوقت كنت حزينا"غاية الحزن لأجل هدى أيضا"،فكل مايهمنى هو هدى الحبيبة . . . وقلب هدى الحبيب . . . نعم كل مايهمنى هو حبيبتى هدى . . . حبيبتى هدى التى لم تفتعل حبها لى بل وتحبنى بكل صدق وإخلاص،فياحبيبة القلب لاتدمعى فما أكثر أن يدمع القلب قبل العين.ويا حبيبة القلب لاتدمعى فليتنى أستطيع أن أمنع دمعك،ولاتدمعى ياقلب القلب فليتنى أستطيع أن أملك قلبك هذا وألفه بثوب من حرير أو أضعه وأحتفظ به فى صومعة من ذهب،أجل ياكل القلوب ليتنى أملك قلبك هذا القلب الطاهر المحب فأضعه فى صومعة من ذهب أو ماس،نعم ليتنى أملك قلبك هذا القلب البرئ المحب فلاأشقى به أبدا"!!!.

الفصل الحادى عشر

مالاتشتهى السفن

(١١)

عدت إلى المنزل مسرعا"،وما أن شرعت فى إرتداء ملابسى وإستبدالها بالبيجامة حتى دق جرس الهاتف،وكان والدى هو الذى رفع السماعة فعلمت من خلال حديثه أن عمى هو المتحدث،فخرجت إلى الصالة ومالبث أن إنتهت المحادثة بينه وبين عمى،حتى وجدته ثائرا" ثورة عارمة ثم وجه الحديث إِلىَّ بطريقة قاسية قائلا" :

ماذا طلبت من عمك؟

فأجبت بإقتضاب : لاشئ!!!

ولكن هذه أول مرة يتحدث عمك إِلىَّ بلهجة شديدة فماذا طلبت منه؟ولماذا ذهبت إليه؟

أقسم لك أنى لم أطلب منه شيئا" وليس هناك مايمكن أن أطلبه منه.

ولماذا ذهبت إلى هناك إذن؟

هدئ نفسك.ولاداعى لأن تشغل بذلك فوالله ليس هناك مايمكنني أن أطلبه منه.

ثم طلب مني أن أتركه وحده وأذهب للمذاكرة،فذهبت إلى غرفتي وقضيت ليلتي وأنا حزينا"غاية الحزن،حائرا"منفعلا" غاية الإنفعال إزاء تصرف عمي ذاك،فلماذا أقدم على حديث أبي بهذه الطريقة؟ولماذا كان يقوم بالإتصال بعد إنهاء حديثه مع أبي دون أن يحدثه ولايرد عليه حين حديث أبي معي،ترى ربما كان يريد أن يعرف ماذا سيكون تصرف أبي معي؟أم يريد أن يعرف ماذا سأقول لأبي؟ولكن ترى لماذا أقدم على الحديث إلى أبي؟ فبررت ذلك أنه يريد أن يواجهني بأبي حتى أصرح له برغبتي في خطبة هدى،ولكني لم أفعل ولاأجرؤ على ذلك لأني أعلم أن ظروفنا لاتسمح بذلك،أم ترى أن مقصده الوحيد أن أصرح لأبي بأني أحب هدى،ولكن في ماذا يفيد ذلك؟وأنا لاأستطيع

ولاأملك أن أحقق ماأريد،ولو كنت أملك وأستطيع ماأقدمت

على فعل ماكان،ثم ماجدوى ذلك؟بعدما صممت وعزمت

عليه،وماذا يفيد عمى؟وماذا يعود عليه من حديث أبى؟وماذا

يستطيع أبى أن يفعل لى؟كما أنى أعلم أنه لن يستطيع أن يقدم

على خطبة هدى لى،ألم يكن من الأفضل ألايقدم عمى على

الحديث إلى أبى؟ألم يكن من الأحسن والأكرم ألايقدم على

فعل ذلك؟وأن يعتبر مافعلت كأن لم يكن،أم تراه إعتقد أننى

أهرب من إبنته أو أرفضها؟!أو لاأحبها أو ليست لى رغبة فى

الإرتباط بها رغم أنى لم أصرح بذلك،فأراد بحديثه أن يضعنى فى

مواجهة مع أبى حتى أصرح وأشرح له كل ماحدث فأكون

بذلك أمام أمر واقع لابد منه،ويُحَتِّمْ على أبى حينئذ أن يذهب

لخطبة هدى لى،ولكن ماذا أقول؟وماذا أفعل؟إزاء عقول تافهة

خاوية ليست لها القدرة على فهم الشخوص وتحليلها وضبط

الأمور وتقديرها،فلوكان عمى ذكيا" ماحدث أبي وماأقدم
على فعل ذلك ولتركني ولم يسأل كأن لم يكن شئ،ولكنه
حدث أبي ظنا" منه أنه سيفعل مايريده،ولوكنت أناأملك
وأستطيع أن أخطب هدى ماترددت وماتأخرت لحظة عن فعل
ذلك بل وماأقدمت على فعل مافعلت.

وبعد أن إنتهيت من تفسير هذا الحديث قلت لنفسى لابد أن
أترك كل شئ حتى أنتهى من دراستى وكنت حينئذ على
مشارف الإمتحانات،حيث إن إمتحاناتى العملية ستبدأ يوم
الأحد الثامن والعشرين من شهر أبريل سنة ألف وتسعمئة
وخمس وثمانين،ولكن ليتهم تركونى وتناسوا ماحدث إلاأنهم
لايستطيعون أن يقدروا لأرجلهم قبل الخطو مواضعها،ففى
مساء اليوم التالى الجمعة السادس والعشرين من أبريل وفى تمام
الساعة السادسة دق جرس الهاتف ولم ألحق برفع السماعة،

حيث سبقنى أخى وسام إلى الهاتف فإقتربت منه وكانت المتحدثة فتاة فأخبرها أخى وسام أنها أخطأت الرقم،وأدركت حينئذ أن هدى هى التى تطلب الرقم وما أن وضع أخى وسام السماعة حتى عاودت الإتصال،فقمت أنا برفع السماعة هذه المرة،وكانت هى المتحدثة فتجاهلتها وأخبرتها أيضا" أنها أخطأت الرقم ووضعت السماعة ثانية،فأعادت الإتصال مرة ثالثة وفى هذه المرة رفعت السماعة ونهرتها بصوت عال وقلت لها أن الرقم خطأ،ثم وضعت السماعة بعنف وقلت لنفسى لابد أن أتحدث إلى هدى غدا"وأعتذر لها،فأنهى بذلك هذه المهزلة وماذا يهم؟مادمت قد عزمت على ألاأذهب إلى هناك مرة أخرى.

وفى صباح اليوم التالى السبت السابع والعشرين من أبريل،وفى تمام الساعة العاشرة،أدرت القرص لأطلب بيت عمى فجاءنى

صوت عادل:

آلو.

آلو.صباح الخير ياعادل أنا أحمد.أين هدى؟دعها تحدثني!.

لقد ذهبت إلى الكلية اليوم فماذا تريد أن تقول لها؟

لقد أردت أن أعتذر لها،وإذا كان عمى موجودا" دعني أحدثه.

إنه لم يذهب للعمل اليوم لأنه متوعك بعض الشئ.

ثم جاء عمى للتحدث إليّ فقال لى بلهجة شديدة :

ألم تقل؟أن هذا هراء وهزل.

إعطنى فرصة ياعمى أن أعتذر لك ولها وعلى العموم . . .

وهل أنا منعتك من شئ؟هذا عيب كبير.هذا عيب أن يكون

هذا هو أسلوب تعاملك ياأستاذ يامفكر الذى يعرف كيف

يتحدث؟وكيف يكتب؟

إسمح لى ياعمى أناأريد أن أرضيك.

ليست هذه طريقة مهذبة فى الحديث!أين؟أين ماما؟دعنى
أحدثها.
إنها لم تذهب للعمل اليوم.إنتظر لثوانى حتى أناديها.
ثم تركت السماعة على المنضدة وناديت أمى لتحدثه :
خيرا" ياأخى جلال ماذا بك؟
أريدكِ أن تتحدثى مع أحمد لتعرفى منه ماذا يريد؟
لقد لمح لى ولكنى لم أصدق كيف يمكن أن تكون هوية هذى
وطريقة تفكيرها وخاصة أننا قد فكرنا أن نخطبها لوسام.
ياأختى فاطمة أريد أن أعرف لمايتصرف كذلك؟ولما لم يأت
ليأخذها وليذهبا أنّى شاءا.
أنا لاأعرف شيئا" ولاأعرف ماذا يحدث كما أننى لاأستطيع أن
أقول لأخيك أمين شيئا" الآن وعلى العموم سأحاول أن أحضر
إليكم اليوم لأعرف كل شئ.

بإختصار يافاطمة أنت تعلمين أن هدى هي إبنتي الوحيدة ولقد تقدم لها دكاترة وأشخاص كثيرون وأريد أن أعرف هذا الإنسان الذى هو فى خيالى ماذا سيكون؟وماذا سيكون شكله؟ هدئ نفسك وإلى اللقاء حتى أحضر إليكم.

مع السلامة.

إنتهت المحادثة بين عمى وأمى فقلت لها على العموم قولى لعمى حينما تذهبين إليهم أننى لن أذهب إلى هناك مرة أخرى،وأذكر أن عمى كان يتحدث بلهجة شديدة وبصوت عالى جدا" لدرجة أننى كنت أسمع صوته طيلة حديثه مع أمى،وأخذت أفكر لماذا إذن لم يزوجها؟ولم يقبل خطبة أى شخص ممن تقدموا لخطبتها!ولماذا لم تقبل هى ذلك؟لابد أن هدى تحبنى؟ أعتقد لا ولكن لابد ولأنهم ربما يعتقدون أن يكون لى وضع ومستقبل أفضل من كل منْ تقدموا لخطبتها،فلم يكن الحب

إذن هو الدافع وراء رغبتهم فى أن يحدث هذا الإرتباط،وعلى
أية حال فرغم كل ذلك ورغم تفاخر عمى بالدكاترة
والأشخاص الكثيرين الذين تقدموا لإبنته،فلابد أن أعتذر لهدى
مهما يكن ثم يكون بعد ذلك مايكون،وحتى الساعة الخامسة
والثلث من ظهر نفس اليوم لم يكن أبى قد عاد من العمل بعد،
فإتصلت ببيت عمى فجاءنى صوت عادل :

آلو.آلو مساء الخير ياعادل.أناأحمد.إعطنى هدى.

أناآسف ياأحمد إنها نائمة.

على العموم أناآسف ياعادل إعذرنى لقد أردت أن أعتذر لها
عما بدر منى وعلى أية حال أرجو أن تنوب عنى فى ذلك.

فقال لى وفى صوته رنة سرور : شكرا" ياأحمد.

عفوا" ياعادل مع السلامة.

مع السلامة.

وبعد قليل حضر أبى من العمل وأثناء تناوله للغداء حدثته أمى برغبتها فى الذهاب لزيارة أسرة عمى فلم يمانع وأبدى رغبته فى أن يذهبا سويا"،فخرجا معا" هما وأختى مها،و لم يتبق سواى أنا وأخى وسام كلانا فى غرفته يذاكر محاضراته،وبعد عودتهما فى المساء دخل أبى وأمى إلى غرفتى ورأيتهما يبتسمان لى،وأخذ أبى يمسح على شعرى ويربت على كتفى وقال لأمى أن تعد لى فنجانا"من الشاى فذهبت أمى لإعداده وبعد قليل أتت به،ثم قال لى إشرب هذا الشاى وهدئ نفسك ولاتشغل بالك بأى شئ سوى المذاكرة،وعلى العموم لقد قال عمك أن أقول لك أنه لايفكر فى تزويج هدى قبل ستة سنوات،ثم تركانى وحدى وأغلقا باب الغرفة عَلىَّ فإندهشت وإرتبت فى الأمر فلابد أنهم قد قصوا على أبى وأمى مافعلته.

وفى اليوم التالى وكان يوم الأحد الثامن والعشرين من أبريل،

وبعد عودتى من الإمتحان،لجأت إلى أمى وحاولت أن أعرف منها ماحدث وماذا قال عمى لهما؟وبعد كثرة سؤال وشدة إلحاح علمت منها أن عمى قال لهما أننى غير متزن وغير طبيعى أما زوجته البارعة الحاذقة فى التمثيل فقالت لهما أننى مجنون،وأنه يجب عليهما أن يذهبا بى إلى طبيب نفسانى لأننى وكما قالا أحتاج إلى العلاج،فإضطرا أبى وأمى أن يتأسفا لهدى عما بدر منى فقالت لهما أننا أخوة وأنه كأن لم يحدث شئ، كما قالت أمى لعمى أننى قلت لها أننى لن أذهب إلى هناك مرة أخرى،فقال لهم عمى على العكس إنه يريدنى أن أذهب إليهم وأن يقولا لى أنه لايفكر فى أن يزوج هدى وأنه مازال أمامى ستة أعوام على الأقل لكى أكون مستعدا" لذلك،وبالطبع كان يقصد عمى بقوله ذاك أن يُعَرِفْ أبى وأمى أن كلانا أنا وهدى يريد أن يرتبط بالآخر أو يكون له ولكن بطريقة غير مباشرة،

وعلى الرغم من أنى قد علمت من أمى مادار بينهم من حديث إلا أننى لم أقص عليها أى شئ،ثم ذهبت إلى غرفتى وأخذت أستعيد ماقالته أمى لى وأفكر فيما قالوه لهم،ومتسائلا" ترى هل كانوا يقبلون على إرضائى أو يحاولون أن يرضوننى ويريحوننى بأن ينفذوا ماجاء بالورقة التى قرأتها عليهم يوم الخميس الماضى ،أعتقد لالا.لابد أنهم إعتقدوا أننى قلت لأبى وأمى كل شئ بعد عودتى من عندهم وبعد حديث عمى إلى أبى يوم الخميس الماضى،فأرادوا بذلك أن يكذبوننى أمام أبى وأمى فآذونى واتهمونى ورمونى بالجنون،وحتى حينئذ لم يكن يتناهى إلى علمى أنهم حاذقون بارعون منافقون إلى هذا الحد وإلى هذه الدرجة من الكذب والنفاق والإفتراء والخداع،حتى أصبحت أحتقرهم وأسخر منهم لأن عقلهم لايمكن أن يصل إلى طريقة تفكيرى،أما هدى . . . هدى هى الوحيدة التى لم تتغير ولن

تتغير وستظل كما هى الحبيبة الرقيقة الحنون،فماذا يهم بعد ذلك؟فهنيئا" لهم بإفتراءاتهم وأكاذيبهم لأنهم لم يفعلوا ذلك إرضاء" إلا لأنفسهم،ولكنهم قصدوا بذلك أن يكذبونى أمام أهلى فأكون أنا المدعى والمفترى عليهم وخاصة زوجة عمى، بالرغم من أنى لم أحك لهم أى شئ أو أى من هذه الحقائق كلها التى لايعلمها أحد لاأبى ولاأمى ولاحتى أختى وسام.

وفى مساء اليوم التالى وكان يوم الإثنين التاسع والعشرين من شهر أبريل وفى تمام الساعة السابعة،دق جرس الهاتف وعلى غير إرادتى هرعت إليه ولكنى لم ألحق برفع السماعة،فقد سبقتنى أختى مها إليها وكانت المتحدثة هى حبيبتى هدى، فأعطتنى أختى مها السماعة قائلة لى أن أبلة هدى تريد أن تتحدث إليك فأخذت السماعة وتحدثت إليها :

آلو.

مساء الخير.

فقلت محاولا" إدعاء أنني لاأعرف صوتها : منْ منْ؟!ماجدة!.

كيف حالك ياأستاذ أحمد وكيف صحتك؟

فقلت بفظاظة : بخير.

إعطني ماما.

فقلت بلهجة قاسية جدا" : حسنا".ولاتتحدثي هنا مرة أخرى.

وأذكر أنني سمعت عمي وزوجته وأولاده يضحكون ثم أعطيت السماعة لأمي فقالت لها :

لاتغضبي .إنه يضحك عليك.

ثم دخلت غرفتي وأغلقت الباب وفي هذا الوقت لم يكن أبي موجودا" بالبيت،وأيقنت حينئذ أنه ربما بدأوا يعتقدون أنني لاأريد هدى،بل ربما أصبحت تعتقد ذلك هدى نفسها وعللت ضحكهم بأنهم يحاولون أن يخفوا ضيقهم وتبرمهم من سلوكي

ذاك وتصرفاتي تلك،ولكن هاهي هدى تثبت لي دائما" أنها تحبني،هاهي تتحدث إليّ اليوم الإثنين وفي تمام الساعة السابعة تماما" كما سبق وحدثتها في نفس الميعاد من قبل،هاهي تتذكر بل وربما تسجل مواعيد تحدثي إليها كما أفعل أنا أيضا".

وبعد قليل جاء أبي فسمعت أمي تخبره أن هدى إتصلت وطلبت الحديث إليّ فقال لها أنه سيذهب إلى هناك الآن ليعرف ماذا يقصدون؟وماذا يريدون؟وبعد عودته علمت من أمي أن عمي قال له مرة ثانية أنني غير مضبوط وغير طبيعي،مما جعل أبي يرتاب في الأمر ويتشكك فيه من ناحيتهم فأخذ يشجعني على المذاكرة،ثم مرت أيام كان رنين الهوى يحدث فيها بين الحين والحين ولكنه فقد كثرته وسيرته الأولى،كما أنه من ناحيتي لم يكن له أي دليل سوى حبي الخالص النبيل لهدى، رغم ماعزمت عليه ونفذته ورغم ماجرت به المقادير حتى كان

يوم السبت الحادى عشر من شهر مايو،وفى حوالى الساعة العاشرة من صباح هذا اليوم أخذت الهاتف إلى غرفتى وطلبت بيت عمى،فقد كنت أريد أن أتحدث إليه ولكنى لم أكن أعرف ماذا سأقول له؟وبعد الإنتهاء من طلب الرقم وبعد جرس طويل كان المتحدث هو عادل :

آلو.

صباح الخير ياعادل أناأحمد.

أهلا" ياأحمد كيف حالكم؟.

بخير والحمد لله.هل عمى متواجدا" اليوم؟أريد أن أتحدث معه؟

لالقد ذهب إلى عمله مبكرا".ففيما كنت تريد أن تحدثه؟

لاشئ فقط كنت أريد أن أتحدث إليه.ولكن يبدو على صوتك أنك مازلت مستيقظا" من النوم الآن لأنك تأخرت فى رفع السماعة.

أجل وكذلك لايوجد أحد هنا سواى حيث أننى أستعد

للإمتحانات و لم أعد أذهب إلى المدرسة.

وفقك الله ياعادل وأبلغ سلامى للجميع.

مع السلامة.

وبعد إنتهاء حديثى معه قلت لنفسى لما لاأتخذ عادل وسيلة

لتوصيل الحقيقة التى سأواجههم بها فيما بعد بطريق غير مباشر،

فهو أخيها ولابد أنه سيخبرهم بما سأقوله له فجميعهم يعرفون

كل شئ وكل منهم يعرف كل شئ عن الآخر،فأعدت

الإتصال مرة أخرى فجاءنى صوته :

آلو.

آلو.أنا أحمد.إعذرنى ياعادل إننى أريد أن أتحدث إليك ولن

آخذ من وقتك كثيرا".

تفضل ياأحمد. معذرة مرة أخرى وأرجوك أن تجلس وأن

تعطينى فرصة للحديث لأن تفكيرى غير مركز.

مهلا" كما شئت؟ ثم صمت برهة وكنت بالفعل مشتت الفكر وحينما أكون كذلك فإننى أكون فى حالة توتر شديد تجعلنى أتحدث بصعوبة وأنتقى تعبيراتى بعد مشقة ثم قلت له :

إسمح لى أولا" أن أقول لك أننى من النوع الذى يحب أن يتحدث دائما" بكل صراحة وصدق.

تفضل قل ماتريد.

طبعا" أنت تعلم مابيننا أنا وهدى.

ماأدراك أننى أعرف فنحن جميعا" لانعلم شيئا".

إذن إعطنى فرصة أن أذكرك.

تذكرنى بماذا؟

ألا تذكر يوم أتيت إليكم فى إجازة نصف العام ومحاولة عاطف أن يفهمنى بطريق غير مباشر أنكم تريدوننى لهدى.

قلت لك نحن لانعلم شيئا".ولابد أنك واهم.

حقا" يبدو أننى واهم ومجنون فعلا".وعلى العموم حينما يحضر أبى سأجعله يذهب بى إلى دكتور أعصاب أو دكتور نفسانى.

يبدو أنك متعب حقا" كما يبدو أنك تريد أن تتحدث كثيرا".

على العموم ياعادل أناأريد أن أقول لك السر فى تصرفاتى تلك وسلوكى ذاك.

قل ماتريد.

قل لى أولا".هل سألنى أحد لما أفعل ذلك؟

لا.

إذن.لقد فعلت ذلك لأننى أريد أن يكون هناك تقارب بين أخى وسام وهدى كما أننى لم أحضر إليكم نوتة الشعر حتى لاتتمسك هدى بذلك.

ولما؟ سأقولها لك صراحة.ولكن ليس قبل أن تعدنى بألاتخبر

أحدا" بذلك وخاصة هدى.

أعدك.

لقد فعلت ذلك حتى أقرب بين أخى وسام وهدى لأن أخى وسام يحب هدى ويود أن يرتبط بها.

أنت موهوم وأنانى.فعلت كما فعلت الدبة بصاحبها خوفا" عليه فقتلته،كما أنك جعلتنا كفئران فى حقل تجارب.

سامحنى ياعادل ألا تستطيع أن تغفر.إن الله يغفر ويسامح وأرجوك ألاتخبر هدى بذلك.

أعدك ألاأخبرها.ولكنى أحذرك إنك بذلك ستخسر هدى.

سامحنى ياعادل وإعذرنى.

لاتقلق لن أقول لها.

أشكرك ياعادل مع السلامة.وبعد إنتهاء حديثى مع عادل أخذت أفكر فيما قاله لى وأسترجع حديثه إلىّ،فقد كانت

نبرات صوته تتأرجح بين اللين والشدة كما كان فى حديثه
تناقضا" كبيرا" يدل على نفاقه وكذبه،بالإضافة إلى أنه ليس من
الممكن بل ومن المستحيل على أمثالهم أن يعترفوا أو يجزموا
بالحقيقة دائما"،فلما ثورته وعنفوانه؟فى حديثه معى إذا كانوا
لايعلمون شيئا" وإذا لم تكن هدى تريدنى!وكيف إتهامه لى
بالوهم والأنانية؟ثم يعود فيخبرنى أننى بذلك سأخسر هدى!!!
نعم أعلم أننى سأخسر هدى وأعلم أنى سأفقد حبها لى.بل وقد
تكرهنى وتمقتنى،ولكن لافائدة من كل ذلك ولاتراجع بعدما
بدأت فى تنفيذ ماعزمت وصممت عليه،ولهذا حدثت عادل
فقد كان لابد أن أمهد للحقيقة التى سأواجههم بها فيما بعد،
ولابد أنه سيذكر لهم ماقلته له رغم وعده لى بأنه لن يخبرهم
بشئ،ورغم تيقنى أنه سيحكى لهم كل شئ-فما وعده هذا
لى-إلاسبيلا" لكى يشجعنى على الإسرار إليه بما أريد أن أقوله،

كما أنه لم يقصد به سوى أن يطمئننى من ناحيته وهذا تماما" ماكنت أقصده أن يعدنى بألايخبر أحدا" وأن أجعله يصدق أننى أثق فى وعده لى،حتى يقبل على تبليغ ماقلته له بطريقة غير مباشرة إلى عمى وزوجته،وكذلك حتى يكون ذلك فى الوقت نفسه من قبيل الإطمئنان إلىّ فى أننى أصدق وعده لى،فأصل بذلك إلى مرادى بعلمهم بطريقة غير مباشرة دون علمهم أننى أعلم أنهم يعلمون،حتى يتسنى لى أن أواجههم مرة أخرى بما أريد حينما تسنح الظروف بذلك.

وفى خلال الأيام التالية كان الهاتف يدق كثيرا" وكنت أعلم أن المتصل يكون من بيت عمى،وليس شرطا" أن تكون هدى بالذات هى المتحدثة،حيث أن من يرفع ذراع التليفون سواء أى من أبى أو أمى أو أخى وسام أو أختى مها لايجد من يرد عليه،خشية أن يعلم أى منهم أن المتحدث من أسرة عمى سواء

كانت هدى أو غيرها،وكذلك ليثبتوا لى أن عادل لم يقل لهم شيئا"،وأن هدى لم تعلم ماقلته لعادل ولهذا فتصرفاتها وسلوكها معى لم يتغيرا،كما يقبل جميعهم على فعل ذلك حتى لاتفعل ذلك هدى وحدها فيكون ذلك مضيعة لوقتها هى الأخرى حيث أننا جميعا" كنا فى الإمتحانات آخر العام،حيث أننى كنت قد بدأت إمتحاناتى من يوم الأحد الثامن والعشرين من شهر أبريل،فقد هدانى تفكيرى فى هذا الوقت أن أطلب بيت عمى حتى أتأكد من أن عادل قد قص عليهم ماقلته، وحتى أتيقن من صحة تفكيرى إزاء طريقة تفكيرهم وسلوكهم وطباعهم وكانت الساعة تقترب من السادسة مساء"،ولم يكن أبى موجودا" بالبيت فأحضرت الهاتف إلى غرفتى لأتصل ببيت عمى،وما أن إنتهيت من طلب الرقم حتى وجدت الخط سريعا" مشغولا" فعرفت أن أحدا" من بيت عمى كان يريد

الإتصال بنا،فتركت الهاتف عدة دقائق حتى يحدث الإتصال عدة مرات حتى دق الهاتف ورفعت السماعة،فكان المتحدث هو عمى ولأننى ذهلت أنه يفعل ذلك بنفسه وضعت السماعة، بسرعة من هول المفاجأة ودون أن أنبس بكلمة،فلابد أنه هو الذى كان يريد الإتصال بنا وتوقع أن أكون أنا أيضا" على إتصال بهم فى نفس اللحظة،فرفع السماعة لفترة حتى يوهمنى حينما أعيد أنا الإتصال مرة أخرى أنه لم يحاول و لم يفكر فى أن يتصل بنا،ولابد أنه تيقن فى المرة الثانية أننى أنا الذى كنت أطلبهم حينما وضعت السماعة دون أن أتحدث،كما أنه لابد وقد عرف أننى بذلك قد تأكدت أن عادل قد قال لهم كل شئ،ولهذا فإننى عاودت الإتصال للمرة الثالثة لعَّلى أمحو هذا الشك من عقله وفكره فجاءنى صوته :

آلو.

مساء الخير.

من؟

أنا أحمد!ألاتعرف صوتى ياعمى؟!

أهلا" ياأحمد.كيف حالكم يابنى؟

الحمد لله ياعمى.

خيرا" يابنى.أتريد شيئا"؟

إننى لاأجد من يصدقنى.

أنت.أنت وحدك.

إنهم يقولون أننى موهوم.

يابنى.إنت خسارة.إنت غالى ياأحمد.

أنت أغلى والله ياعمى.

إعطنى بابا.

آسف ياعمى.إنه ليس هنا.

إعطنى ماما.تحت أمرك ياعمى.ثوانى.

ثم ناديت أمى وأعطيتها السماعة لتحدثه ثم إقتربت منها كى أستطيع أن أسمع ماسيقوله عمى لها فحدثته قائلة :

خيرا" ياأخى جلال.

ياأختى فاطمة صدقى أحمد.صدقيه فيما يقوله.

إنه لم يحكِ لى عن شئ.

إستمعى إليه ودعيه يقول مايريده وصدقيه.

والله أنا لاأعرف ماذا يريد؟

ثم إنتهت المحادثة وسألتنى أمى :

عما أريد أن أقول؟وفيماذا يريدها عمى أن تصدقنى؟

فقلت لها : لاشئ كما أننى لم أحاول أن أفهمك شيئا"ما فلم تصدقى!فلماذا يقول لك عمى ذلك؟ولماذا يتحدثون عنى بهذه الطريقة؟

أنا لاأعرف!

ثم تركتنى أمى وأخرجت الهاتف وأغلقت باب الغرفة،ويبدو أن أمى قد تناست فعلا" أننى حدثتها فى أمر هدى من قبل ولهذا صدقت ماقلته لها،كما أن عمى حينما طلب أبى أو أمى أراد بذلك أن يفهمنى أنه كان يتصل ليحدث أحدهما فى هذا الأمر، وأنه لم يقصد أن يتصل دون صوت كما يفعلون!ثم أخذت أفكر فيما قاله عمى لى،إنه يريدنى أنا وأنا وحدى . . . إنه يريدنى أن أتصرف وحدى!يريدنى أن أقدم على خطبة هدى منه دون أحد معى،هل يعقل هذا؟وهل تصدقون ذلك؟وإذا كان يريد ذلك حقا"لما تحدث إلى أبى؟ولما أراد أن يجعلنى فى مواجهة مع أبى وأمى؟ثم لماذا يتراجع الآن عن ذلك ويريدنى أن أذهب له وحدى؟لابد أنه تراجع عن ذلك حينما علم أنه لاأحد يعرف شيئا" عما بيننا وأننى لن أستطيع أن أقنع أبى

بذلك فأراد أن أتصرف فى الأمر وحدى دون أن يكون أحد معى،ولكن لو كان عمى حقيقة يريدنى أن أفعل ذلك وحدى ماأقدم على حديث أبى وماجعلنى فى مواجهة معه،كما أنهم دائما" يحاولون أن يثبتوا أنهم لايعرفون شيئا" عما بيننا أنا وهدى.حتى بعد كل ماحدث بل وحاولوا هذه المرة أيضا" أن يؤكدوا ذلك،حيث دق جرس الهاتف فى الساعة الثامنة إلا الربع من نفس ذلك اليوم وقد سبقتنى أختى مها إلى الهاتف ورفعت السماعة،وأدركت أن المتحدثة هى هدى حيث أخبرتها مها أن الرقم خطأ ثم وضعت السماعة فسألتها من المتحدث؟فأجابت أنها فتاة تسأل هل هذا منزل عمو مكرم؟ فتأكدت أن المتحدثة هى هدى فعلا"،حيث كانت هذه طريقتها حينما تطلبنى ويكون الذى رفع ذراع التليفون أحدا" غيرى،فتدّعى أنها تسأل عن شخص ماتدعوه بأى إسم.

ثم مرت الأيام التالية هادئة بعض الشئ حتى إنتهيت من إمتحاناتى يوم الأربعاء فى الثانى والعشرين من شهر مايو،وكان اليوم هو ثانى أيام شهر رمضان وأذكر أن أخى وسام قد إنتهى من إمتحاناته فى نفس اليوم،فتفرغت للبحث ومشروع البكالوريوس حتى تمت المناقشة فإنتهيت منه بعد عدة أيام، ومرت أيام شهر رمضان هادئة تماما" بينى وبينهم إلا من رنين الهوى بين الحين والحين،وكان من ناحيتهم فقط لأننى كنت فى هذه الفترة قد إمتنعت عن فعل ذلك كما كنت أحاول أن أبتعد عن البيت قدر إستطاعتى وألا أرد على الهاتف،وكنت غالبا" أخرج بعد الإفطار فأذهب إلى أحد أصدقائى أو أسير وحدى على الطريق أو أذهب إلى المكان الذى إعتدت الجلوس فيه،حتى كان يوم الإثنين العاشر من شهر يونيو،وبعد الإفطار حدث الرنين مرتين متتاليتين فإبتعدت عن الهاتف لعلمى أن

هدى أو أن أحدا" من بيت عمى لابد سيتصل بنا،وفى المرة الثالثة دق الجرس دقات متتالية فقلت لأمى إن أحدا" من بيت عمى هو الذى يطلبنا فإذا سأل أحد عنى أخبريه أننى لست متواجدا"،ثم تركتها ترفع ذراع التليفون وفى هذا الوقت أيضا" لم يكن أبى موجودا" بالبيت ولكنى علمت من خلال حديثها أنهم سألوا عنى،فقالت لهم كما قلت لها وكما أخبرتهم بنجاح أخى وسام فقد ذهبا هو وأبى للإطلاع على النتيجة فى كليته بعد عودته من العمل ظهرا".

وفى اليوم التالى وكان يوم الثلاثاء الحادى عشر من شهر يونيو، وبعد عودتى من نزهتى المعتادة بعد الإفطار،صعدت إلى المنزل فوجدت زوجة عمى تجلس فى الصالة مع أمى فسلمت عليها وسألتنى عن صحتى ولكن كان على وجهها بشائر غضب منى لم تستطع إخفائه عنى،ثم دلفت إلى غرفة الصالون حيث يجلس

أبى وأخى وسام وعمى وعاطف إبنه،ولم تكن هدى حضرت معهم هذه المرة بالطبع فسلمت عليهم ويبدوا أنهم حضروا ليباركوا نجاح أخى وسام،ثم جلست إلى جانب عاطف فبادرنى سائلا" :

كيف حالك؟وماهى أخبار إمتحاناتك؟

الحمد لله.

ولما لم تحضر إلينا فى رمضان؟وكان لسؤاله إِلَىَّ وقعا" جعلنى أقول لنفسى إذن حان وقت المواجهة الحقيقية فملت نحوه وقلت له :

أريد أن أحدثك فى شئ ما على إنفراد.

تحت أمرك.

فخرج ورائى وذهبت به إلى غرفة المكتب ثم واربت الباب وأجلسته فقال لى :

هيه.قل ماتريد.

بداية أريدك أن تعرف أننى أعرف كل شئ ولقد عرفت فتيات كثيرات و لم أكن فى حاجة لكل إتصالات هدى فى الفترة الماضية.

فإمتدت يده إلى باب الغرفة فأغلقه تماما" حتى لايسمع أحد من أسرتى شيئا" من حديثى إليه ثم قال لى :

وما الذى يجعل هدى تتصل بكم دون أن تجعل أحدا" يعرف؟

إسمع ياعاطف لاداعى للحديث معى بهذه الطريقة فأنت تعرف إجابة السؤال ثم هل تعتقد أننى لاأفهم شيئا"؟. . .بإختصار لما تدخلتم فى هذا الموضوع؟بالإضافة هل تعتقد أننى لم أكن أريد أن تأتى هدى إلىّ بهذه الطريقة.

فقال فى إنفعال وإرتباك :

وهل قد أتت هى إليك؟

فقلت فى سخرية وتهكم : أتريد أن تضحك عَلَىَّ؟

ياأخى تحدث إلى أهلك وقل لهم ماتريد.

بإختصار وحتى لانطيل الحديث أنا أريد أن تكون هدى لوسام أماأنالا .لا .أنا أريدها لوسام.

ثم أخرجت من جيبى بضعة جنيهات وقلت له :

إنظر هذه النقود ملك أبى،أما أنا لاأملك شيئا" وقيمة الإنسان فيما يملك من مال.وهاهو ماأملكه!.

ثم وضعت يدىَّ فى جيبىِّ البنطلون وأخرجتهما فارغين ثم قلت له :

فماذا وكم إذن أساوى وماهى قيمتى؟. . . بالطبع لا شئ.

إذن ياأخى قل لأهلك.

قلت لك : أنا لاأملك شيئا" ولهذا لاأساوى شيئا" ولذلك أريد أن تكون هدى لوسام.

ولما أنت لا؟

هكذا أريد!!!

قل لى لما؟

لأن وسام أفضل وأحسن منى!.

وفيماذا يفضلك وسام ويكون أحسن منك؟

أنا لالالا.وسام أحسن.الفلوس هى كل حاجة.

وماكدت أنتهى من كلماتى تلك حتى فتح أبى الباب وإستدعى عاطف لأن عمى وزوجته قد قاما وإستعدا للخروج والذهاب إلى بيتهم،فخرجت وسلمت عليهم ثم أوصلتهم حتى الباب الخارجى للمنزل،فقال عمى لى يكفى ماحدث إن أمين لايستطيع أن يتحمل أى شئ،فقلت له لقد كان شيئا" من الجنون وإنتهى كل شئ وهكذا خلاص،ثم ودعتهم مرة ثانية وأشرت لعاطف وزوجة عمى بالسلام بغير إكتراث،وأذكر

أنى كنت منفعلا" غاية الإنفعال وجادا" منتهى الجدية حين
حديثى مع عاطف وكذلك عمى،ثم صعدت إلى المنزل
وأخذت أفكر فيما قلته لعاطف فلابد أنه هو أيضا" سيقص
عليهم ماحدث،ولابد أنهم سيفهمون ماأقصد وهكذا ينتهى
كل شئ،هكذا . . . هكذا أريح وأستريح . . . ،ولكن
حدث فى اليوم التالى مالم أكن أتوقعه حينما عدت إلى البيت
حيث قالت لى أمى أن عمى قد تحدث إليها وقال لها إن أحمد
قال لعاطف أن هدى تحدثه فى التليفون وأنا الذى قلت لها
تفعل ذلك،إن أحمد يريدنى أن أخسر أمين وليكن فى علمك
لاأنت ولاأحمد فى خيالى،فقلت لها : لايهم ولاتضايقى نفسك
ودعيه يقول مايريد.ولقد قلت لك من قبل أننى لن أذهب إلى
هناك مرة أخرى،وهكذا . . . هكذا إنتهى كل شئ بالنسبة لى
ولكن هل كان عاطف وعادل صادقين فى كل مانقلاه

وأوصلاه عنى لأسرهما؟أم كانا يحرفان مايروق لهما وخاصة عاطف لأنه وبلا أدنى شك يريد ويتمنى أن أنهى كل شئ، ولكن هل يساعدانى على أن أنسى كل شئ؟هل يساعدانى أن أنسى كل ماقالاه عنى ومالإدعياه على من وهم وجنون؟أجل هكذا . . . وهكذا إنتهى كل شئ،فهل يساعدنى عمى أن أنسى ماقاله لأمى أنه لاهى ولاأنا فى خياله،نعم له الحق وألف حق أن يقول ذلك،ولكنه لم يقل ذلك ليس إرضاء" لى أو تنفيذا" لما بالورقة أو ردا" على ما فعلته ولمافعلته؟!أو إنكارا" لرغبة هدى أيضا" فى أن تكون لى،ولكنها الحقيقة . . .
والحقيقة هى أننى لست فى خياله لاهو ولاإبنته،فهاهى . . . هاهى النظرة تتغير وهاهى الحقيقة زيف ورياء.

الفصل الثانى عشر

الفصل الأخير

(١٢)

كان قد إنتهى كل شئ بالنسبة لى فلم يعد بالقلب أى سبيل لجرى الحب حتى تعود إلى الجسد الحياة،ولكن بالنسبة لهم لم يكونوا قد فهموا بعد ماأقصد،فلوكانوا قد فهموا فلما أقدموا على فعل ماأتوقع ومالاأبغى وإن كان شيئا" بداخلى يحدثنى ويصدقنى أنه لابد سيحدث.

وفى يوم الأحد السادس عشر من شهر يونيو سنة ألف وتسعمئة وخمس وثمانين ذهبت إلى بيت عمى مصطفى وهو أحد أخوة أبى الآخرين ويقطن فى نفس مدينتنا وبالقرب من بيتنا،فوجدت عادل إبن عمى جلال هناك وبعد قضاء بعض الوقت إستأذن عادل للخروج،فقمت وإستأذنت عمى مصطفى أنا أيضا" بحجة توصيل عادل،فخرجنا سويا" وأثناء سيرنا فى الطريق دعوته لقضاء بعض الوقت عندنا،وبعد قليل إستأذن للخروج هو أيضا" فإستأذنت أبى لتوصيله وبعد أن خرجنا إلى

الشارع قال لى :

ماهى آخر أخبارك الأدبية؟

لاشئ!

كيف ياأديب؟

أديب . . . أنا لست أديبا" كما أن الأدب ليس له ثمن فى وقتنا هذا!!!

ليه يابيه "بيك"؟!لقد إنتهى عصر البهوات والبكوات ياعادل كن واقعيا".

والآن الرجل بفلوسه.أليس كذلك؟!

كن عاقلا" ياأحمد . . .

أنا.أنا فى منتهى العقل.هم الذين يريدون لى أن أجن.

والله.أنت الذى يمكنه أن يجنن بلدا" بأكمله.

على العموم ياعادل أنا مريض أهذى بل وفى غاية المرض.

أنا أيضا" كنت متوترا" جدا".

مع السلامة.

وكنت أثناء حديثنا قد أوصلته إلى محطة الأوتوبيس بالشارع الرئيسى لكى يستقل الحافلة وبعد أن صعد إليها عدت أدراجى إلى البيت،وأذكر أن هذا اليوم كان السابع والعشرين من رمضان،لأننى قصدت من حديثى مع عادل أن أطمئنه أن ماحدث كأن لم يكن،مع إصرارى ألاأذهب إلى هناك مرة أخرى إلا إذا أصبحت أملك تحقيق ماأريد وأقدر على التقدم لخطبة هدى رغم صدق توقعى أن ذلك لن يكون.

وفى اليوم التالى عرفت من أمى أن زوجة عمى قد إتصلت بها وسألتها عن صحتى،ويبدو أنها قد فعلت ذلك بحجة إرضائى عما بدر منها،أو يبدو أنهم فعلا" صدقوا أننى مريض و لم أكن أقصد أن أفعل مافعلت،وبالفعل لم أذهب إلى هناك مرة أخرى،

لدرجة أنني لم أذهب مع أسرتي إلى بيت عمي أول أيام عيد الفطر كما هي عادتنا أن نذهب إليهم في هذا اليوم،وتعجب أبي وأمي لذلك فتعللت أنني على ميعاد مع أحد أصدقائي، فخرجوا جميعا" وبقيت أنا بالبيت أنتظر عودتهم وكانت هذه أول مرة يذهبوا دوني إلى بيت عمي ولاأكون معهم،وأول مرة يأتي العيد ولاأذهب لرؤية هدى فأصبحنا تتوه عنا أيام أعيادنا وتهرب منا أوقات سعادتنا،وبعد عودتهم علمت من أبي أن عمي وزوجته سألا عني ودهشا لعدم ذهابي إليهم.

ثم حضر سعيد أحد أبناء عمي بالبلدة في الريف يدعونا لحفل زفافه غدا"،فذهبنا في اليوم التالي ولم تكن لي رغبة في الذهاب ولكن أبي أصر على ذلك،وكان يوم الخميس العشرين من شهر يونيو،فتقابلنا مع عمي جلال هناك وكذلك عادل،ولكن عاطف لم يحضر معهم وأذكر أنني سألت عادل عن عاطف

فأجاب أنه ذهب إلى الإسكندرية للمصيف مع أحد أصدقائه، وبعد قليل خرجنا أنا وأخي وسام وعادل وإنتحينا جانبا" بعيدا" عن مدخل البيت،ثم قاما وتركاني وحدي وأثناء جلوسي رأيت زوجة عمي جلال تمشي وكأنها ستهد الأرض بأرجلها أو ستزلزل أركانها بأقدامها،ثم رأيت هدى وكانت عيناها تريدان أن تنظرا إليّ ولكنهما لاتقويان على ذلك وتأبيان،فقد كان بهما دموعا" لاتجد سبيلا" للإنهمار ووجهها يعلوه بشائر حزن عميق،فأيقنت أن هدى لابد وأنها ستتزوج حسام هذا بل وستتزوجه دون رغبتها ورضاها،وأعلم أنها تحبني ولاتهتم بالمظاهر مثلهم،وإلا فلما هذه الدموع الجريحة في عينيها ولما بشائر هذا الحزن العميق؟وهي أيضا" ضعيفة الشخصية ولن تستطيع أن ترفض أمر أمها فهي الحاكم الناهي عندهم ولايمكنها أن ترفض أمر أبيها وأخويها ولايمكنها أن تفعل ذلك

ولم أزل متيقنا" من ذلك وأن ذلك سيحدث ويكون،ثم مرت
الأيام التالية وأنا حزينا" حائرا" لاأدرى ماذا أفعل؟تلف الأرض
بى وتدور،ولم يكن مبلغ حزنى وأسفى لأن هدى ستتزوج من
أتوقع،ولكن كانت غايتهما لأن هدى حزينة،فقد كان الرنين
قد إنقطع إلى غير رجعة وكان ذلك أقوى دليل على صدق
تخميناتى وإحساسى،وظللت على هذه الحال لاأطيق أحدا" بل
لاأطيق أن أرى الهاتف أو أسمعه يدق فى بيتنا لأى سبب من
الأسباب لأنه فقد رنينه وروعته ونشوته،حتى صدقت تخميناتى
وتأكدت توقعاتى ففى مساء يوم السبت السادس من يوليو،
جاء إلينا عمى مصطفى لزيارتنا وقضاء بعض الوقت عندنا،
أتعلمون ماذا قال؟!لقد ذكر أثناء حديثه أن حسام إبن الرجل
الثرى قد إتصل به وأبلغه أنه قرأ فاتحة هدى وأن حفل الزفاف
سيكون يوم الخميس القادم،ياللهول هاهى هدى ستتزوج

حسام إبن الرجل الثرى وهاهو الحلم يتحقق وتصدق توقعاتى وتنبؤاتى،وظللت حائرا" لم أصدق الخبر و لم أصدق مايحدث كأننى فى كابوس فظيع،فبت ليلتى ساهرا" صامتا" طوال الليل تارة جالسا" على فراشى وأخرى واقفا" على قدمى والغرفة مظلمة،وكانت هدى تستحوذ على كل عقلى وتفكيرى فكادت نفسى تنهار وقواى تخور و لم يكن ذلك من هول المفاجأة ولسرعة الحدث ومن هول صدق الواقعة وتخمين حدوثها المتوقع بالنسبة لى من ذى قبل!!!ولكنى لم أدرِ بذلك لأننى كنت فى حالة غريبة مؤلمة أشد الإيلام كأنى أحمل فوق رأسى وكتفىَّ ملايين الصخور والجبال،حالة فظيعة ومفزعة فقد كنت أحيا فى عالم ثالث لاهو بعالم الأحياء ولاهو بعالم الأموات،وماأقساها من حالة تلك التى تتحجر فيها العبرات فى العيون وتتجمد فيها المشاعر فى العقل والوجدان كله،وماأقوى

هذه الحالة التى يصير فيها البكاء خيرا" وشفقة ورحمة،وياها من قسوة للأقدار حينما تصبح حالة الإنسان بهذه البشاعة،وظللت هكذا لم يغمض لى جفن حتى أتت كل الخيوط البيضاء على الخيوط السوداء فى سمائى،فإرتديت ملابسى وخرجت أسير بلاهدف أو غاية وبعدما ألَّم بى الإرهاق عدت إلى المنزل،وما أن دلفت من الباب حتى وجدت أبى مستيقظا" فتعجب لذلك وسألنى أين كنت؟فأجبته أنى كنت أستنشق الهواء خارج البيت فعاد وسألنى ماذا بى؟فردت أمى إنه متألم لزواج هدى فقال لى : يابنى كل شئ فى هذه الدنيا نصيب ويسير وفق مقادير محددة وماكان لك فهو لك وماهو ليس لك فليس لك،كما أريدك أن تعلم جيدا" أن عمك جلال لم يكن يفكر فينا،وأن كل ما يهمه هو المال وفى سبيله يمكنه أن يفعل أى شئ،فإنسى هذا الموضوع ولاداعى لأن تفكر فى هذا الأمر مرة أخرى؟ولكن

كيف أنساها؟أو أنسى حزنها ودموعها وآلامها،وأنّى للقلب أن يلتئم ويندمل جرحه ولن يندمل،لالا.لن أنسى وكيف أنسى ياحبيبة؟لالن أنسى ولاتتألمى فأنا القتيل والقاتل وأنا الخنجر والجرح،فلاتدمعى وإهجرى كى أقوى على مداواة جروحى ولن أقوى.

وهكذا مرت الأيام كئيبة غريبة أحاول أن أمنع عقلى من التفكير فى هدى،ولكن أنّى ذلك لدرجة أن عقلى كان يصور لى فى بعض الأحيان أننى فى حلم مفزع وأن ذلك لن يكون،بل كان يصور لى أن ذلك كله ضرب من الخيال لايمت للحقيقة بأية صلة،ثم يعود ويضعنى أمام الحقيقة المرة والواقع الأليم . . . أجل الحقيقة المرة والواقع الأليم اللذان لم يكن عزائى فيهما سوى أننى ماكنت واهما" ولامجنونا"،وأننى كنت أضحى من أجل هدى ومن أجل هدى فقط،ومن أجل سعادتها وراحتها

طالما سيكونا بيد غيرى فالحب أيضا" تضحية.

وصرت أحتضن الهاتف بين زراعىّ كأنه طفل صغير يبكى أحنو عليه،فأهدهده وأمسح دمعه وأربت عليه عَلّيِ أهدئ من روعه وإلتياعه وبكائه على فراقنا،وفى مساء اليوم الأحد السابع من يوليو بدأت أعود إلى هدوئى النفسى بعض الشئ،فسألت نفسى ولكن كيف رضيت هدى ذلك؟وهل رضيت أن تكون لوسام لمجرد أن أباه ثرى؟لالا.لابد أنها تزوجت دون رضاها ورغبتها.

ولكن أنّى لهم أن يفهموا ويعوا ذلك وهم لايعرفون هذه المعانى والمشاعر الإنسانية السامية النبيلة،إن مايهمهم هو المال فقط،.ثم ماذا كنت أستطيع ان أفعل؟لأناس منافقين ماديين مخادعين من صفاتهم الغدر والنفاق والخديعة،فمهما عددت فى صفاتهم الدنيئة فلن أستطيع أن أصف مدى إنحطاطهم وإنحدارهم

الأخلاقى،وطاف بعقلى أنه ربما لم يكن عمى موافقا" على
ذلك وأنه قد إحتالت عليه زوجته وأقنعته بذلك ونفذت
مكيدهما فى مهارة وحذق،فقد أكون أنا الأصلح ولكن حسام
هو الأقوى لأنه يملك المال وكان لابد أن يفوز بهدى،بل وكان
سيظل هو الزوج المختار والمرشح دائما" والمأمول لهم بكل
المقاييس إذا لم أكن قد فعلت ذلك،وقد تكون أقنعت هدى
نفسها وحدثتها بذلك "وماذا كان يستطيع أن يفعل لنا أحمد؟"
إن مايهمهم هو المال فقط ولهذا كان لابد أن أحطم قلبها
وأجرح كرامتها وكبريائها لأجلها ولأجل راحتها، ولقد ذهلوا
من عدم ذهابى إليهم لأنهم لم يفهموا ولن يفهموا أن السبب
الحقيقى هو أطماعهم وماديتهم بالدرجة الأولى فلم يرحموا
شبابنا وإغتالوا حبنا،أجل لقد إندهشوا وتعجبوا من عدم
ذهابى إليهم كما علمت من أبى الذى تعجب هو أيضا" من

ذلك،وكان لابد ألا أذهب إليهم لأدرى هل أنا على حق أم أننى مخطئ؟

ثم بدأت أقضى معظم وقتى خارج البيت وبعد عودتى يوم الثلاثاء السادس عشر من يوليو،علمت من أخى وسام أن عمى جلال وزوجته قد حضروا لدعوتنا لحفل زفاف هدى بعد غد الخميس،وقال لى : أن أبى وعمى قد تعاركا معا" بسبب زواج هدى وأن أبى قال له : مبروك الفلوس ياجلال،فقال له عمى : أننى السبب وأننى قلت لعاطف : أن حسام أحسن منى، فصارت قطيعة بيننا وبين عمى لم أرضِ عن حدوثها ولكن ماذا أفعل فى نذالتهم؟وكيف يمكننى أن أغير من أخلاقهم البذيئة؟أو كيف يمكننى أن أتعامل مع أناس لاأخلاقيات لهم؟ قد تقولون أننا أهل وأخوة ولكن هل الأخوة الحقيقيون يخدعون إخوتهم؟وبعد غد الخميس كان حفل زفاف هدى فلم

أنم ليلتها وظللت أتقلب على فراشى كأننى أتقلب على جمر
من نار،فهاهى هدى من الليلة تصير زوجة لحسام صديق
عاطف إبن الرجل الثرى،وهاهى هدى تتزوج وتكون لغيرى
وصرت أتخيل كيف ستكون هدى فى حفل زفافها؟!وهل
ستكون سعيدة أم شقية فى حياهًا بل لابد أهًا ستتصنع السعادة
أم سيبدو على وجهها علامات حزن تحاول أن تخفيها؟ولما كل
هذا؟!أليست هى التى إختارت لنفسها ذلك؟وتمنيت لحظتها لو
لم تكن قد صارت هذه القطيعة بيننا وبين عمى لنذهب جميعا"
نبارك فأراها فى حفل عرسها،وتمنيت أن أرى سعادهًا التى
صنعتها بيدى وأدعو لها بالسعادة فى حياهًا إن كانت السعادة
هى المال،فالحب أيضا" تضحية ولكن ترى هل كان يمكن لى
أن أسعى إليهم بعد كل أطماعهم وأكاذيبهم وإفتراءاهًم؟.
ولمالا أليس ذلك من أجل هدى الحبيبة؟ألم يكن الحب لها

والتضحية من أجلها؟فلما لاتكون سعيدة؟وخاصة إذا كنت قد إستطعت أن أجعلها تمقتني وتكرهني بل وتقتلعني إقتلاعا" من عقلها وقلبها وتفكيرها،فلما لاتكون لها إذن تلك السعادة؟! وقد تكون فى داخلها حزينة أيضا" لأنها تزوجت دون رغبتها ورضاها،فإن لم تكن لى فلم يكن فرضا" أن تكون لحسام هذا، وصرت أحدث نفسى لقد كنت أضحى لأجلها ولأجل سعادتها فليسامحنى الله وليغفر لى ولتغفر لى حبيبتى لأنها لاتعلم لماذا حطمت قلبها؟بل لماذا حطمت قلبى ياحبيبة؟فالحب أيضا" تضحية ولكن للأسف كنت أضحى فى زمن باتت فيه التضحيات وهما" وسرابا"،كنت أضحى فى زمن يجب فيه على الإنسان ألايفرط فيمايحب ويتمنى مهما كانت الأسباب،كنت أضحى فى زمن أصبح فيه الحب الحقيقى نادر الوجود،ولكن ربما إذا كنت قد تقدمت لخطبتها وتم لى ماأريد فربما تكون

زوجة عمى سببا" فى فراقنا وإنفصالنا،فرغم سنوات حبنا فإنه
لم يدم و لم يتجاوز عمره سوى ستة أشهر،أى منذ الثامن عشر
من يناير وحتى نفس التاريخ من شهر يوليو عام ألف وتسعمئة
وخمس وثمانين،أجل لم يتجاوز عمره ستة أشهر فقط هى عمره
الحقيقى حينما بدأ يرى النور،وكان ذلك بسبب زوجة عمى
كما أن عمى منذ البداية يريد أن يسير وأن يكون وحده،
فإختار أن يكون وأن يسير وحده فهل أخطأت؟وهل أخطات
حينما رفضت أن أكون فى موقع إختبار أو موضع مقارنة
وإختيار،قد تقولون أننا أهل وأخوة ولكن هاهى قصتى ولكم
أن تحكموا،وهاهو الهاتف أصبح صامتا" لم يعد ينشيني رنينه أو
يطربنى لحنه،و لم أعد أهرع إليه لأحتضنه صرت أمقته وأكرهه
أشد الكره،فلولاه ماذقت حلاوة الحب ومرارته وعذابه ولكن
ترى منْ منا الذى لم يلبِّ النداء؟!!!...

الخاتمة

أرجو أن يسمح لى القراء أن أشاركهم الرأى فى الحكم على بطل القصة وحبيبته،وقد يعتقد القراء أننى متعاطف معه ولكنى أقولها كلمة حق أنه كان على حق حينما ضحى بحبه فى سبيل سعادة حبيبته وراحته هو أيضا"،ولى أن أسال : ماذا كان يمكنه أن يفعل لهؤلاء الأشخاص؟!أما بالنسبة للحبيبة فلم يكن لها أى ذنب أو جريرة سوى أنها أحبته و لم تستطع أن تدافع عن حبها مثله،وربما تزوجت دون رغبتها ولكنى أعود فأقول أنها لوكانت تحبه وتريده حقا" ماتزوجت وتركته ولتمسكت بأن تكون له وألاتكون لغيره،ولكنها فضلت السعادة عن طريق المال لاعن طريق الحب،كما أريد أن أقول أن الحب مظلوم وأنه لم يكن أبدا" وهما" فى يوم مَن الأيام،ولكن هل يساوى

المال أو حتى الدنيا بأكملها لحظة حب حقيقية صادقة يحس بها الإنسان؟!أعتقدلا فالمال ماهو إلاوسيلة لكى يحيا الإنسان وليست قيمة الإنسان فيما يملكه،فلا ولا وألف لا.

لاتغتالوا الحب الحقيقى الصادق فمخدوع ومغرور كل من يتصور أنه يستطيع أن يبتاع الحب بالمال.

كما أريد أن أوضح أن الهدف الأعظم والمستفاد،والقضية الكبرى والمثلى المرجوة من هذه القصة هو نبذ كل ماهو لاأخلاقى من منطلق فكر إيمانى متقدم بحت قوى،وأن قاتلى الحب إرهابيون،ومغتصبى الحقوق إرهابيون،والكاذبين والمنافقين والحاقدين إرهابيون،وكذلك الدافعين لقتل الحب إرهابيون،ومسممى ومتطرفى الفكر إرهابيون،وأنه لابد أن نبحث عن حل لتعود الأخلاق وتعود المثل ويعم الحب والخير والسلام ولاشك أن الحل أمامنا،ولاشك أن الإسلام هو الحل

حتى نستطيع أن نقف فى مواجهة العدو المتربص بالحرية والسلام،فالإسلام هو الحب والسلام.

والسلام

المؤلف

فهرس

الطبعة الأولى

مكتب المهندس للطباعة والنشر
توزيع شركة E.C.T.I
ت: ٠١١٨٤٥٧٠٨٣-٠١٨٠٣٩٨٤٨١
رقم الإيداع بدار الكتب
١٩٨٨١/لسنة ٢٠١٠م

الطبعة الأولى ٢٠١٠م

